جـرح الضـوء

بقلم الياس خليل زخريا

★

خرجت ابنتنا الكبرى ، وحدها ، امس ، من النافذة .
رمت بعينيها كلها من الشرفة على بعد الابعاد ،
... قلقـة ، حائرة ،
هي دائما على الشوق والتردد في همة الرحيل .
تنام في ضوضاء السهر وجلبة الحي كأنها مقيمة فـــي
اطراف الغابة الموحشة .
تستيقظ ، واهية ، متعبة ، كأن الليل والشمس لـــم
يمسحا بأصابعهما الحالمة شفتيها الضائعتين ،
تخبيء ناظريها بنظارتين سوداوين اشترتهما
لها امها لترد بهما عن ناظريها قساوة الضوء .
يا لقساوة ذلك الضوء المتخفي في كثافة الزجاج ،
كيف تسرب كالوان الصور في ثنايا الخيال !؟
يا لقساوة ذلك الطبعالفطري النابضنبضة في فورةالخلق
... سألتها فتذمر فيها الضجر ،
نبهت فثار فيها النزق ،
... لنت في العنف فاشتدت فيها على الكبت والطمع ،
والليونة نفسها ، خشونة الجفاء .
رايتها تقرأ ، فظننت انها تأكل الحروف من جوانبها أكلا.
نهم في تخمة ، اندفاع في انكفاء .
ظل يطوف طوفانه في جوانب البيت ،
يحاول ان يدخل علينا ، ثم ينقبض
انقباضه ويتوارى ......
وتلك الكتب المكدسة المخلعة ، بعضها على بعض ،
وتلك الدفاتر والاوراق المنسقة ، المشوشة ،
وقميص على الارض
ورداء ، ومنشفة ، والف شيء وشيء على حافة السرير،
وقيتارة مرمية وحدها في الزاوية كأنها
منهزمة في صهوة العراك ،
وصبية متكئة على مسندها ، آخذة مأخوذة ،
تكتب باطراف اصابعها اليسريات كأنها تلهو
لهوها بوقار الزمن العابر في ممرات البيت ،
ايتها الصبية الصغيرة التي كبر فيها
قلبها كما يكبر الامل في فسحة المضيق !!
ايتها الدالية الخضراء التي امتدت فيها احلامها
بعيدا الى الجزيرة النائية في بحر الاغتراب !!

ابحري ، يا بنيتي ،
شقي الماء كما يشق الزورق المطمئن اسرار الافق ،
ارفعي عن عينيك هذه النظارة السوداء الواقفة
كالجدار بين مفرق الشوق وخلجان الرصيف ،
افتحي النافذة على كلا المصراعين ...
لتدخل اليك الشمس باقدامها اللينة ،
ليسرح عندك الهواء باجنحته الملساء ،
ليفعم صدرك طيب الشباب المتطاير من قارورة العمر ،
على جفنك بقايا متناثرة من طيف هارب
قصت علي امك مرارا حكاية الطيف الهارب
ذلك الطيف الذي تملص فـي غفلة العين مـــن اهداب
الجفـون ،
ونزل في الكرم الشرقي عند الدالية يروي علـى عرائس
القريـة اخبار
المارد الاشقر الذي يشق القمقم ويقف وحده عاريا فـي
عرض الطريق .
متى تقصين علي ، يا ابنتي ، قصة الفارس المجهول الذي
يضرب بحوافره الذهبية خد القمر في ليلة العرزال ؟؟
متى تقصين علي قصة التنفس : ونعمتي التنفس
نعمة التضرع ، ونعمة الانين ...
أسمع في هدوء هذه الغرفة الصامتة شبه انين
ويـا ابنتي ،
أضحكني جدا هذا البلبل الشارد الذي يحاول
ان يفتح بمنقاره الطريء باب القفص ليطلق جناحيه
على التلال في مهب الريح .
حسبته مشتاقا الى الفضاء
يتنقل من غصن الى غصن ، ومن تينة الى تينة ، سارحا،
مارحـا
كأن الارض كلها منبر من منابر جناحه وحنجرته
حسبته يحلم بما كان يحلم به السجين المكبل
الذي اذاقته سلسلة القضاء مرارة العقاب
في بـراءة النفس
حسبته ينشد تلك (العنقاء) المغربية التـــي قيـل ان
اسراب الطير
تغنت بها في لمحات من ساعات الخلق عند ولادة الزمن
واها له من بلبل عجيب ...
واها له من شارد مشرد
يحمل بريشه من تراب الكرم حبات قديمات يشد بـــه
خصبها الخصيب من ضيق القفص الى رحابة التـلال
والاوداء والظلال المتعانقة .
لو كان القفص ترابا نديا لمرغ البلبل فيه على الرخـــاء ،
والقناعة ، منقاره
الغـاضب ،
لو كان القفص ورقا اخضر ، لرف عليه بجناحه المشتاق،
وهذا اليابس القاسي من الخشب ،

حلم

١- من انت يا احلى من النغم ... اترى التقينا قبل في حلم ؟
٢- عيناك ـ بالدنيا فديتهما ـ ... تتقاسمان مدامعي ودمي
٣- تتضاحكان وتبكيان معا ... فأحار بين اللاء والنعم
٤- يعيي بياني وصف سحرهما ... هل يحصر الفردوس في كلم ؟
٥- لا تشمخي في خاطري صنما ... اخشى على تقواي من صنم
٦- ايقظت في قلبي وساوسه ... يا ليتها ماتت ولم تنم
٧- قد كنت احسب ناره انطفات ... فاذا بها نار على علم
٨- هبت عليها الريح ، فاتقدت ... تحت الرماد كوامن الضرم
٩- يا انت يا احلى بنفسجة ... صلى عليك بنفسج الاكم
١٠- ذهب الصبا الا علالته ... كيف ابتعثت شذاه في ادمي ؟
١١- اتجددين بنظرة املي ... وتبددين ببسمة المي
١٢- لا لن اصدق مقلتيك فما ... تغرى العيون بهيكل ردم
١٣- ما زال قلبي في نضارته ... لكن باقي الجسم في سقم
١٤- ماذا تفيد السيف حليته ... ان لم يكن بالصارم اللهم ؟
١٥- لم يبق عندي في الهوى جلد ... ما اضيق الدنيا على برم
١٦- حولت عن جناته نظري ... وثنيت عن آفاقه قدمي
١٧- للحب مرحلة ، وقد ذهبت ... يا من يساعدني على هرمي !

١٨- يا حلوتي لا تنقلي خبري ... للزهر او تفشيه للنسم
١٩- ((غلواء)) خلف خطاي ساهرة ... تحصي علي سفاسف التهم
٢٠- ماذا اقول لها اذا نشقت ... رياك ملء يدي وملء فمي ؟
٢١- ساقول عانقني الربيع فيا ... غلواء عبي الطيب وابتسمي
٢٢- ساقولها .. لكن اذا اكتشفت ... اني ادس السم في الدسم
٢٣- فلسوف ازعم دونما حرج ... ان التلاقي كان في الحلم ..

بوانس ايرس ـ الارجنتين

زكي قنصل

لو عادت اليه نضرته ، ومواهته لرأيت صاحبنا يزقزق
فيه ، ويصفق ، ويملأ البيت طربا طروبا ،
وانطلاقا طليقا ، وشكرا شكورا ،
ويا ابنتي ،
الحمد لله ، ان التراب الذي نثرته امك على قدميك في
اسرار
المعمودية هو قطع مقدسة من قلبها الغني
ان الزيت الذي مسحت به في قوة الايمان جسدك الطيب
هو عصارات مباركة من نفسها المتضرعة ،
ويا ابنتي
اقيم ليلا نهارا في نظارتيك السوداوين
اسهر العمر عند سريرك القلق
سلم لي قلبك الطريء من جرح الضوء

الياس خليل زخريا



اميـل توفيـق

مناقشة حول الفن ماهيته واهدافه

بقلم اميل توفيق

* * *

ما هو الفـن ؟

عرف الفن كثير من كبار الادباء والفنانين والنقاد جاءت تعاريفهم مختلفة متباينة وفقا لاختلاف وتباين الزوايا التي يراه بها كل منهم .

يكتب تولستوي عن الفن قائلا : ان جميع مناحي الحياة مشبعة بالفن .. من أغنيات المهد الى الحان الرقص ــ ومن ترنيمات الهيكل الى اناشيد الشعب ، ان الفن يتخلل شعاب الحياة بأسرها ويجري سيالا مع جداولها ويجتاز فائضا مع طاقاتها الناشطة . والفن كما يبدو في الشعر وفي غيره ــ هو الصنع او هو **الانتاج ــ والفنان** هو الصانع او هو المنتج .. فالفن هو الاسم الذي نخلعه على تلك الطاقة التي يتألف منها تيار نشاطنا الحيوي حينما يتبلور او حينما يستهدف غاية من غايات التعبير عن داخل نفوسنا ــ فليس هناك تعريف للفن ولكن هناك تمييزا بين الفن الرفيع والفن الوضيع .

يقول هـ.ج. ولز : ان الفن نوع خاص من اللعب يصاغ في قالب انشائي او بنائي ــ فليس هناك بين انواع اللعب الاخرى والفن ، بحيث يمكنك ان تقول هنا ينتهي اللعب وهنا يبدأ الفن ، ان الفن هو الطاقة البشرية في زيادتها او فيضها عن حاجاتها البيولوجية او عن تأديتها للوظائف الحيوية العادية .

لقد كان ارسطاليس يعد الرياضيين والاطباء ومن اليهم بالفنانين ــ فالفن في نظره هو القوة التي تصوغ شكل التحصيل الانساني الذي استطاع الانسان على مدى الازمان ان ينتجه ــ فهو الحقيقة لما نسميه تسمية غير تامة بالاخلاق . **انه كل خلق انساني** .

وحق لنا ان نفهم ان الحاسة الفنية تتضمن شيئين : ففي الانسان صفتان متميزتان هما **صفة العمل** وصفة التأمل . وفيه اثنان متميزان : **الانسان الفنان والانسان** الشاعر الجمالي ــ اي هناك قدرتان : **الاولى القدرة** على الصنع والابتكار وهي قوام الفن ، والثانية هي القدرة على التأمل وهي **قوام الشعور بالجمال** .

وهاتان القدرتان تتحدان فتكونان « **الحاسة الفنية** » وهي تتفاوت في الافراد والجماعات . فالفن الرفيع اذن يتضمن القدرة على الصنع بجانب القدرة التأملية والتخيلية .

وعلى رغم ان هاتين القدرتين تنتهيان الى غايات بعيدة واحدة فنحن نفرق بينها تفرقة تامة في الفنون الرفيعة ــ وفي فن الحياة الذي يتضمن الاخلاق ــ فالقدرة الفنية تنبع من **تيار النشاط الانساني الذي** يوجب العمل ــ ونحن نحس جمال العمل الفني حينما ننظر اليه نظرة تأملية ، **تلك النظرة التي تخلق الجمال** .

وكما قال ريمي دي جورمون : حيثما تكون الحياة فهناك الجمال ــ ويضيف هافلوك اليس قائلا : بشرط ان تكون هناك نظرة تأملية نحو **هذه الحياة** .

والخلق كفن ينتمي ــ اكثر ما ينتمي ــ الى القدرة العملية لا الى القدرة التأملية ــ وقد كان **هذا الموضوع** من الموضوعات الجدلية التي تباين فيها **الفلاسفة** اشد تباين واختلفوا اوسع خلاف .

كانت نظرة اليونانيين نظرة جمالية اي انهم كانوا يرون الخلق متصفا بالعنصر التأملي الذي يبعث على الشعور الخيالي المقيد ببواعث الفضيلة ــ وكانت تلك النظرة وراثية في طبيعتهم ولكنهم لم يحلوا المشكلات التي تتعلق بالموضوعات الجمالية لانهم ــ رغم تمجيدهم للفنون الرفيعة وتقديرهم اياها ــ كانوا يحقرون الفنانين انفسهم اذ كانوا يعتبرون الصانع او الفنان الذي ينتج بيديه انسانا همجيا وليس متمدينا .

كان افلاطون يوثق العلاقة بين الفضيلة والسعادة ، ويزاوج بين الرذيلة والشقاء . ولم يكن يقر كاتبا مسرحيا

اهم المراجع لهذا التحليل :

1 - The Dance of Life : Havelock Ellis

2 - Art and Education : by John Dewey (& Others)

٣ ــ حواس المدنية (هدية المقتطف السنوية لسنة ١٩٥١) : اميل توفيق

او قصصيا يجعل من الرجل الفاضل انسانا شقيا . او الرجل الآثم انسانا سعيدا . وعند افلاطون ان الرجل الفاضل لا يمثله صانع أو عبد . وانما يرجع سبب هذه الفطرة الممعنة في النقاء والخلق الى انهم كانوا ينظرون الى الكائنات والموجودات نظرة فلسفية تأملية بدافع من دوافع السلوك الخلقي المثالي . تلك كانت نظرة الفن للخلق .

اما ارسطاليس فقد راى في الفن مراى جديدا اذ اعتبر الفن مستهدفا لاهداف التعبير الانساني وهي الاهداف التي تتضمن في حد ذاتها نهاية اللذة والمتعة . وكانت نظرة ارسطاليس هذه حديثة العهد على اليونان — ولذا لم يكن من المستطاع ان تطغي على النظرة القديمة .. ومع ذلك فقد خلقت هذه النظرة .. نظرية الفن للفن — يقول شوبنهور ان الفن في الموسيقى وفي الشعر وفي الفلسفة وفي الرسم ، عديم الفائدة من الناحية المادية وهذا ما يجعله عبقريا ، وتلك هي ميزة النبل في الفن . فالفن لذاته تماما مثل الزهرة الناضرة والعبير العطر ، فنحن اذ نستمتع الفن ترتفع قلوبنا فوق جو الحاجات الضرورية الثقيلة ، فالحياة هي جهاد الارادة — ولكن في الفن تصبح الارادة ملموسة منظورة اي منطلقة وهي قاتلة للتأمل الخالص النقي .

ويقول برجسون ان الفنان يرفع الحجب المادية عن الاشياء ليعلن لنا الطبيعة اذ هو موهوب بذلك التجدد العذري للنظر والسمع والتفكير . انه الالهام الغريزي او الغريزة التي فقدت عنصر النفع منها . ويقول برجسون : ليس للفن غرض الا ان ينزع الرموز النافعة عمليا او تلك الخواص الثقافية والاجتماعية لكي يقف وجها لوجه امام الحقيقة نفسها . ويصبح الفن مؤديا وظيفته الحقيقية عندما يبعدنا عن الحياة العادية .

على ان النظرة الثالثة هي ان الفن للمجتمع او هو للحياة . فيقول نيتشه : ان الفن هو الباعث القوي للحياة فهو يولد البهجة والانتعاش ولذا فللفن خاصة النفع التي تفوق بمراحل هدفه المباشر . وفي رأي نيتشه ان نظرية الفن للفن نظرة خطيرة مثل الحق للحق — والفضيلة للفضيلة . فما الفن والمعرفة والخلق الا وسائل قيمة نحو تمكين الميول الباعثة للحياة . فنيتشه يتفق مع شوبنهور وجورمون في الغض من الوظيفة الخلقية للفن فيرون فيه وظيفة اجتماعية — وبهذا المعنى يذهب جويو الفرنسي الى ان الفن رغم تميزه المستقل انما يتحد في اساسه مع الدين ومع الاخلاق وهو يقول : ان هناك وحدة كلية لمعاني الحياة والخلق والمجتمع والدين والفن — لذا فالفن عنده في كلمة واحدة هي الحياة . وعلى ذلك فهو يعتقد انه لا محل مطلقا للتباين بين نظرية الفن للفن .. ونظرية الفن للخلق .. لان للفن وظيفة خلقية واجتماعية .

واختم بفكرة هافلوك اليس الذي يعقب على هذه الاراء — حول مفهوم الفن — في كتابه The Dance of Life فيوفق بينها قائلا :

ان جميع الفلاسفة المتقدمين كانوا مخطئين في الاجابة لانهم لم يعرفوا تماما السؤال الذي هم بصدد الاجابة عنه ، وموضع الخطأ هو انهم لم يروا ان الخلق — كسائر الوظائف النفسية الحيوية للانسان — فن من الفنون — واذا كانت الفنون هي مجموعة الوظائف النفسية التي تنبع من نشاط المرء ، فليس هناك اذن ما يدعو الى التفرقة بين الخلق والفن وما اليها لان هذه الوظائف سيتحتم ان تتحد معا اتحادا متناسقا منسجما . اذ هي تنبعث جميعا من مصدر واحد هو الطاقة الانسانية .

وقد يمكن ان نصل الى مثل هذه النتيجة من زاوية اخرى كما سأبين بعد حين .

تحليل سيكولوجي : بين العلم والفن

اولا — ان كل نشاط انساني ، اذا تناولته دوافع اللعب والانشاء في خارج حدوده البيولوجية او الحيوية المباشرة ، انما يتبلور الى انتاج فني . ولكنا نفرق بين الفنون الرفيعة كالموسيقى والشعر والادب والنحت والرسم وما اليها — وبقية الفنون الاخرى. فنقول انالفن الرفيع هو صدى لانفعالات الفنان في غير النهج البيولوجي، بل هو على وجهادق املاء التجربة الاجتماعية الوجدانية التي يمر بها الفنان او يعانيها . فلو ان المتألم او المنفعل بالحزن كان يعبر عن المهاو حزنه بالبكاء — أو لو ان شخصا احس بمشكلة وجدانية واستطاع ان يجد لها نهاية بيولوجية لما كان هناك انتاج فني ، ولما تكونت آثار وجدانية تتفاعل بعمق في داخل اللا شعور .. فالفن هو الانتاج الذي يدفعه اللا شعور المفعم بالذكريات والفكر المتصارعة ، الى استخدام الشعور في التعبير والعمل . انه ناتج للتخيلات Phantasies ولكن بلغة شعورية .

ثانيا — ولكي تزداد معرفتنا بالفن وخصائصه ، ينبغي ان نفرق بين العلم والفن . فنستعرض البحث الذي ذهب اليه س. هربرت في كتابه « العقل الباطن في الفن والحياة » The Unconscions in Art and Life تحت موضوع « الفكر والخيال » Thought and Phantasy ويتلخص فيما يلي :

١ — ان تفكير الطفولة تفكير رمزي يقابل تفكير الانسان البدائي من بعض الوجوه كتعبيره بالصور الذهنية مثلا ، فالمطر صورة تعبيرية عن خصوبة الارض ، والخضر او النباتات صورة تعبيرية عن الجوع وهكذا .

٢ — وقد تكون التفكير العقلي المنطقي اذ اصطدم الانسان بعقبات الطبيعة وواقع الحياة وصعابها ، ومن هنا نشأ التعليل . Reasoning

٣ — اما التفكير الرمزي Symbolic فمن خصائصه

انه داخلي ــ يسقط الاشياء في داخل العقل ــ تفكير ذاتي ــ اما التفكير العقلي فتفكير موضوعي .

٤ ــ وفي الانسان يسير التفكيران جنبا الى جنب، وبحسب درجة كل منهما يكون التمييز بين نوعين من الشخصية : الشخصية المنطوية Introvert والشخصية المنبسطة Extrovert

٥ ــ وهناك نظريتان تتعارضان . تقول احداهما ان الحقيقة التي يفكر فيها الانسان ويسعى اليها انما هي خارج نفسه أي في العالم الخارجي ، وان المعرفة الحقيقية التي يرغب فيها هي تلك التي يحصل عليها بمعرفة هذا العالم الخارجي . وتقول الثانية : بل الحقيقة التي يسعى اليها انما هي معرفة النفس ، ومن خلالها يرى الانسان الاشياء الخارجية .

على ان الدراسة النفسية تخلص الى ان الفكر الانساني لا يقوم على احدى هاتين النظريتين فحسب ، فالداخلية والخارجية تتمشيان معا في الفكر الانساني غير ان هناك اختلافا بين الافراد من حيث الصبغة التي يصطبغ بها تفكيرهم ، الامر الذي يجعلنا نقسم الناس من حيث الانطوائية والانبساطية .

٦ ــ ونحن اذا قارنا بين العلم والفن نقول : ان الفنان هو الشخص المنطوي النزعة الذي يخرج للعالم تلك الصور الذهنية ، والتخيلات التي يتخيلها تبعا لحاجاته النفسية وذلك في قالب من التفكير العقلي ــ او بعبارة اوضح ان تفكير الفنان تفكير رمزي ، وهو لكي يعبر عنه يستخدم التفكير العقلي . عالم الفنان هو الرمز في حين ان العلم يقوم على معرفة الكون من الناحية الموضوعية . حتى في دراسة الظواهر النفسية الداخلية.

والآن يجمل بنا ان نسير شوطا آخر في التحديد :

الفن والجدة

ان كونك تنظر فتعلم او ترقب وتفحص العلاقات الاجتماعية او غيرها ، هذا علم ، ولكنك اذا نظرت فرأيت «رؤية جديدة» تفسرها وتؤولها في نظام فكري ، وبموقف اجتماعي معين ــ فهذه النظرة ، وهذا التفسير المفعمان بالوجدان الراقي ، والمفرغان في قالب جمالي ــ هو الفن . ان الفنان ينظر فيتطلع الى « الجديد » . فالجدة في نظره هي التي تبعثه على الانتاج ، وهي كذلك المحك الذي تجعلنا نحكم على هذا الانتاج وينبغي ان يفهم ان الشيء الجديد هو الشيء المتطور من القديم . الجديد هو النامي من ثقافتنا وحضارتنا بقديمها وحاضرها . والفنان الذي يزيد من تراث الانسانية ويثريها هو الذي يجعل من التقاليد نقطة انطلاقه ، فيطورها بتفاعله. ومن هذا التطور .. تنبثق رؤياه الجديدة فالفن يغزو في الأفق المتسع ، والثقافة الشاملة . ومن هذه الزاوية نحن نلمح هذا التطور في اغراض الفن ، فمن « الكلاسيكية » التي تعنى بمجرد الحدود وتناسق اجزاء العمل الفني ، الى « الرومانسية » التي تعنى بأن تخلق في اجواء عليا من الاحلام الذاتية ، الى الوصفية ومنها « الواقعية » التي تعنى بموقف الفنان من مجتمعه .. ومن الحضارة السائدة بأجمعها . فنحن لا نفهم طبيعة النفس البشرية الا من خلال الفن ، كما لا تتفتح امامنا منافذ الطبائع ، ولا تتكشف نوازع المفارقات، او ظواهر التوافقات والتكيفات، بل ولا تدرك فلسفة للحياة .. الا من خلال تلك الصور الانسانية المبتسرة .. من روائع النغم او القصة او المسرحية او القصيدة او النحت او التصوير او الفكر المتكامل .

الفن والصوفية

ان الالم والحزن والاخفاق ، وامثال هذه الانفعالات والمشاعر ، هي التي تجعل المرء يحس الغربة والانعزال والشعور بالوحدة (او تركه وحيدا) ، وهي لذلك تحمله على ان يزيد من توثيق الروابط بينه وبين مجتمعه . وتدعوه لان يتعاون وان يتفاهم تفاهم العقل والقلب معا . وحيثما توجد حاسة التجاوب بين الفرد ومجتمعه او حاسة التوافق الانسجامي العاطفي ، فهنا تنبثق التجربة الصوفية الغامضة The Mystic Experience فالوطنية ، حيثما يخضع الفرد تحت تأثير التوحد في الفكر والشعور والهدف بين ابناء وطنه ، هي في الواقع شعور صوفي Mystical Feeling

وان تكن الوحدة ليست تامة بين الوطنيين ، ولكن الخلاف امامها وامام التصورات الاجتماعية الواحدة يفقد دلالته كخلاف . وكذلك الامر في عاطفة الحب . فحينما يخضع الفرد تحت تأثير الحب ، فانه يجد ان مدى التجاوب مع الحبيب ، في الرغبات والاهواء ، قد اصبح مدى كبيرا لدرجة تصبح معها الخلافات اشياء هينة وطفيفة يمكن احتمالها بل ولا يلتفت اليها . فحاسة الاتحاد هذه ، تمحو ــ على الاقل لفترة ما ــ حاسة الفرقة او الغربة .. ومن هنا .. من هذه الحاسة الموحدة ينبثق الشعور الصوفي . وهذا الانتشار الصوفي بين الاشخاص الذين توحدهم الوطنية او الحب وما اشبه هو انتشار وهمي . وكثيرا ما ينعت الحبيب باسمى الخصائص النبيلة ، والفضائل النادرة التي قد لا توجد في الحقيقة . اعني ان هناك ميلا للعقل في حالاته الصوفية هذه لان ينغمس في الوهم والانفعالية .. ومن هنا يرتبط الفن بالصوفية . بعبارة موجزة ان الفن يرتبط بالتوحد بين الفنان وبين مجتمعه . والفن ايضا صوفي ، والصوفية لها قطبان : انفعالية ذاتية .. وتصورات اجتماعية .

وروائع الفنون قد ابدعها اصحابها بقصد اشباع رغباتهم . وينبغي ان يفهم ان الفارق بين الحاجات المادية

وحاجات الفن هو ان روائع الفنون تجد صدى مباشرا لدى القلب الانساني والشخصية الانسانية . ان الفنان يضع كل نفسه في فنه وعالمه مفعم بالانسانية بدرجة لا نراها في عمل المهندس او الصانع . فالفن بلا شخصية لا قيمة له. ان الفن يوسع بطريقة مباشرة من رؤيانا، بأن يطلعنا على رؤى الفنانين ، ويبصرنا بنظراتهم الخاصة الانسانية المستمدة من مجتمعنا ، وبذلك نشعر بتلك الحاسة التي تتجاوب معها وجداناتنا وعواطفنا ، ونجد انفسنا مسوقين بالادراك نحو ما ارتآه الفنان وما اشار اليه العمل الفني .

فالفن — اذن — من هذه الناحية ، اعني من ناحية ارتباطه بفنان وبمجتمع — تسوده مشاركات وجدانية ومشاعر موحدة نتيجة حاسة التجاوب . هذا الفن يمدنا بمشاعر وآراء وأفكار وجدانية تنتشلنا من وهاد الفشل واليأس — فأمام الفن لا نجد الفشل نهاية ، ولا نرى اليأس حلا . ولا نرتئي في الظلام او الهزيمة الا انهما مرحلتان من مراحل الضياء والنصر . ان الفنان المشارك لمجتمعه فنان له (موقف) .. وهو يسهم في ان يغزو الاحساس بكل القيم الانسانية النبيلة ، ويرمي ان يبعث الامل في الملايين البشرية ، التي يهدها الملل والكلال والضنك والفاقة ، ويقيم من اصحاب العرق والدمع الضائعة وسط الجموع ، بطولات حقة .. فينتشل هذه القلوب الانسانية من ازحام الطريق الذي ضللته الافكار البغيضة والعنصرية أو البطولات الزائفة .

هذه النظرة تجمع بين النقيضين — ان الفن ذاتي — وان الفن اجتماعي فلا غنى للفنان عن مجتمع يتجاوب معه — ولا غنى عن المجتمع من فنانين يقودونه نحو رؤى جديدة .

الفن والحضارة الانسانية .. والفن والتكامل ..

وفق النظرية الخاصة بالتقدم الاجتماعي لموريس جينزبرج Sociology - by Morris Ginsberg والقائلة بأن المجتمعات وحدات نزوعية للتقدم نحو وحدة حضارية .. اي حضارة انسانية .. ومن هذه الزاوية نحن نعتبر الفن الاصيل الهادف للحياة هو الفن الذي يرمي الى تخطي الحواجز الذاتية ليس فقط للفنان ، بل والعنصرية ايضا. حقا ان للاقليمية طابعها الخاص وللشرق قوميته وسماته المميزة والتي ينبغي ان تدرس وتدرك مفاهيمها فتمثل في كل انتاج فني. ولكن الشيء المهم هو انتصبح اصالةهذه الاعمال الفنية بحيث تسهم من انسانية الحضارة العالمية في انسانية الحضارة العالمية وتزيد من تراثها . وليس معنى ذلك ان تنقطع الصلة بين ماضينا الادبي او الفني .. وانما تكون فنون ثقافتنا مستوعبة للماضي والحاضر ولمختلف الثقافات بحيث نستطيع ان نهضم وان نتمثل في لا شعورنا جميع المتجهات ، ومن هذه الخامات يمكننا ان نعبر تعبيرنا الذاتي المطبوع بشخصيتنا والمتجه نحو الحضارة الانسانية اما من حيث الفنان ، فالاتجاه السوي هو ان ينظر الى الفن على انه نوع من الحياة المتكاملة بالنسبة للفنان ، بحيث تظهر في اعماله الفنية اصالة الشخصية الكلية ، اي أن فنه يكون دالا على عمل شخصية انسانية لها (موقف معين) . ومن هذه الزاوية يصبح لزاما على الفنان ان تتكامل عنده النظرة الى العلم والاخلاق والفن ، بحيث يوحد بينها في حياته ، وينسق في فنه بين هذه النظرات وبحيث يكون عمله الفني اشبه بكائن حي ، لو نظرت اليه من وجهة العلم ، او نظرت اليه من وجهة الاخلاق لرأيته انسانا تلتقي عنده هذه النظرات ولا تتعارض . او ان هذا العمل الفني هو ملتقى نظراته جميعا التي اتحدت في وحدة هي وحدة الحياة ، هي فلسفة تأملية لحياة ظافرة .

فاذا استثارته انانية غاشمة مثلا ، كان عمله الفني الحقيق بالخلود ، قصة جماعية تدعو لقهر النفس المنطوية على ذاتها — اي تدعو الى الاخذ بناصرها في طريق البطولة الحقة — وفي الاتجاه التعاوني الحق . لا ان يكون قصيدة هجاء او وصفا لانفعالاته السوداوية المنكفئة على نفسها بالحقد والالم .

فالتكامل في النظرة من وراء ثقافات متعددة ، ونتيجة الدفع النزوعي للمجتمع نحو الاتصال بالثقافات الاجتماعية الاخرى . تحتم على الفنان الا ينعزل . فان اتصاله بالحياة .. وبالفكر سيطور نظرته ويجدد رؤياه .

ان الخلق والفن يلتقيان ما داما يهبطان على ارض الواقع يستمدان نبعهما من المجتمع . فالخلق الذي يميز الشخصية المتكاملة هو الخلق النامي الذي يتصف سلوكه بحاسة العدل والمسئولية الفردية المرتكزة على تقدير موقف الفرد بالنسبة للمجتمع .. وهذا الخلق يلتقي نعلا بالفن الذي يستمد نبعه من الطبائع البشرية .. ومن هنا جاءت الضرورة بأن الفنان « مسؤول » ومسؤولية الفنان وحريته لا تتعارضان ، او تتناقضان — بل انهما دعامتا الابداع الممثل للقيم المطلقة .

شبين الكوم — ج.ع.م — اميل توفيق

اذكريني

الى وردة الشام .. عليها السلام

وردة الشام قفي عند السنين ... وانبشي آثار ماضينا الدفين
ذلك العهد اذكريه تنشقي ... أرجا من شذوات الياسمين
حبنا الاول يا فاتنتي ... مثل يضرب للمفتتنين
ابعثي ذكراه ، بثي طيفه ... في دروب العمر حينا بعد حين
اذكريني كلما شق الفضا ... سرب اطيار كما بنا تبين
اذكريني كلما شاد شدا ... مثلما كنت بشعري تهزجين
اذكريني كلما الليل سجا ... وتندى أهلا بالسامرين
اذكريني كلما البدر سرى ... ساهرا يحصي هموم الساهرين
طالعي حسنك في مرآته ... تذكري من هام بالحسن المبين

اذكري مدرستينا واذكري ... حائطا بين بنات وبنين
ورواقا واصلا بابيهما ... وزقاقا يجمع المنصرفين
في حناياه كمنا ساعة ... أبدي ذكرها . هل تذكرين ؟
ذلك اليوم تعارفنا فما ... نلت اعجابي امام المعجبين
ثم عدنا للتلاقي ، والهوى ... لم يزل طي فؤادينا جنين
تستقي الحائطنا أخباره ... ناطقات بمراد الصامتين
غامزات ، سربت اشواقنا ... بين أنظار الرفاق العابرين .

ثم ماذا ؟؟ دخل الحب على ... قلب قلبينا دخول الفاتحين
وأغار السحر في أعقابه ... فطوى الجد بساط اللاعبين
بدأت مأساتنا لما بدا ... من غرامي فيك ما لا تفهمين
شره منك ، ومني وله ... لم تجفف ناره ماء الجبين
لم تنل عذرة حبي حظوة ... كالتي أحظيتها للفاسقين
الهوى الروحي ، واخيبته ! ... وردة الشام تود القاطفين ..

اذكري العلة أضنتني وقد ... غبت استشفي فاضناني الحنين
واذكري كيف تزوجت بمن ... غال كالسارق كنز الغائبين
اذكري يوم تجاهلت الهوى ... فاذا بالدمع فضاح سخين
يوم أزمعت النوى في خفية ... رأفة منك بمهجور حزين
دلني قلبي ، فبادرت الى ... مشهد التوديع أجتر الانين

قد عشقنا وافترقنا دون ان ... نتحاكى بلسان العاشقين

باريس

جورج صيدح

كانت تريد ان تشعر بأنها قد اصبحت فعلا حرة . فرأت ان اول عمل يمكن ان تقوم به ، ويدل – بدون شك – على انها قد صارت حرة فعلا ، هو ان تذهب الى السينما بمفردها . ارتدت ملابسها على عجل ، ولم تهتم بوضع مساحيق على وجهها . انها فقط ، **تريد ان تثبت لمن حولها** ، **انها يمكن ان تقارن** – وبدون ادنى فرق – بأي رجل . أليس من حق أي رجل ، ان يذهب وحيدا الى السينما . هناك بعض النساء ، يذهبن الى السينما وحيدات ، الا ان نظرات الجالسين كثيرا ما تلتهمهن ، وقد يثقل احدهم على احداهن ، وربما نشأت علاقة سريعة في الظلام .

وكان شعورها الذي جعلها تحس بحريتها ، هو يوم عودتها من الكلية بعد ان ظهرت نتيجة الليسانس . لم تفرح بحصولها على الشهادة ، قدر فرحتها بما قاله لها ابوها منذ اكثر من اربعة اعوام : فاطمة يا بنتي ، انت صغيرة ، يوم ان تأخذي شهادتك الكبيرة ، يمكن ان تتصرفي كما تشائين ، ستكونين حرة تماما ، ولكن بعد ان تكوني قد عرفت ما هو خير وما هو شر . وحينما دخلت على والديها والبسمة المشرقة على وجهها فاجأتهما بقولها : انني منذ الان حرة ، اخرج متى اشاء واعود متى أريد . عندئذ ، نظر ابوها اليها نظرة ذات معنى ، الا انه لم ينطق بحرف ، ظل رانيا اليها ، وكأنه لا يدري ما يقول . اما امها فقد ابتسمت وهي تقول لها : ايه اللي بتقوليه ده يا فاطمة ، انت لسه برضه صغيرة . وشعرت فاطمة ، بأن كلام امها يعني شيئا ما ، وان صمت ابيها ، يبدو محملا بكلام كثير لا تدري ما هو على حقيقته ، وان كانت تدرك انه لا بد يرفض هذه الحرية . وارادت ان تخفف من وقع كلامها ، فربما يكونان قد فهما خطأ ، او ان معنى سيئا جال بخاطر احدهما وقالت : انا قصدي اني فاهمه كل حاجة ، واعرف ما ينفع وما يضر ، انا مش صغيرة . ابتسمت امها عند سماعها هذا الكلام وقالت : طول عمرك عاقلة يا بنتي . حولت فاطمة نظرها الى ابيها ، فلمحت ظل ابتسامة ساخرة على شفتيه : « بتضحك على ايه يا بابا » ؟. جذب نفسا من سيجارته ثم قال : انا بأضحك عليكي ، يظهر انك فاهمه الحرية خطأ . واعتقدت ان اباها ، سيدخل معها في مناقشة لا اول لها ولا آخر ، فابتدرته قائلة : انا قصدي اني اصبحت افهم كل شيء ، وانت نفسك قلت لي يوم دخلت الكلية ،



بقلم مصطفى ابو النصر

ان حريتي مرهونة بالشهادة . اعتدل الاب في جلسته ، متهيئا لالقاء درس اخلاقي من دروسه الكثيرة . وايقنت فاطمة ان والدها ، لن ينتهي من هذا الدرس قبل ساعة او ساعتين على الاقل ، فهو دائما اذا ما بدأ في القاء نصائحه ، لا ينتهي منها غالبا الا اذا حان موعد صلاة المغرب ، وعليها ان تظل مصغية في ادب وخشوع لا تقاطعه او تناقشه ، الا حينما يسمح لها . ولم يكن هذا اليوم ، يوم نجاحها ، مما يلائم هذه الجلسات الطويلة .



انها تشعر بقلبها يرقص في صدرها ، وبأقدامها تكاد تطير بها من على الارض . وقبل ان يبدأ حديثه أسرعت قائلة : انا فاهمة كل حاجة عاوز تقولها ، ولكن انا قصدي انني اقدر اذهب للسينما ، او لبعض الصديقات او اشياء من هذا القبيل .. الن اعمل ، وقد اعين في بلد واعيش بمفردي ، من سيكون في هذه الحالة الرقيب علي ؟ انا رقيبة نفسي بلا شك ، انا التي يمكن ان تصون نفسها ، أليس كذلك يا ابي ؟

اعجب الام هذا الكلام فعبرت قائلة : الله يحميك يا بنتي ، طول عمرك عاقلة . اما الاب ، فقد اغبطت في نفسه ، وشعر كما لو انه كان قد غرس شجرة ، والان بدات تثمر . وهز راسه موافقا مؤمنا على كلام ابنته ، ولم يستطع منع نفسه من القيام وتقبيلها في جبينها قائلا : مبروك يا بنتي مبروك . وشعرت الام ان هذا واجبها ايضا ، فطوقتها بذراعيها وقبلتها في خديها قبلتين ، سمع صوتهما الاب وهو يغادر الغرفة . واعلنت فاطمة ، بين هذه القبلات انها قررت الذهاب اليوم الى السينما ، ووافق الاب بدون قيد ولا شرط ، وربتت الام على كتفها داعية لها : الله يحميك يا بنتي .. الله يحميك .

☆

لن تكن تفكر في الرواية او دار السينما ، كل ما يهمها ان تعبر تجربة الانفراد ، فتنتزع الاعجاب من الجالسين وخاصة كبار السن باستقامتها وجديتها . واستقلت الاتوبيس وجلست في مقعد بالدرجة الاولى . والغريب انها كانت تجلس دائما في الدرجة الاولى ، وهي في طريقها الى الكلية ، الا ان شعورها اليوم يختلف تماما عن اي شعور سابق . تحس اليوم انها قد حصلت على شيء ما ، وضعها في صف امامي ، غير تلك الصفوف التي تقف فيها اغلب البنات ، ثم انها

اليوم تستطيع ان تقول وبشجاعة انها حاملة الليسانس ، الا ان ذلك لم يكن فقط هو حقيقة شعورها انها تحس بان كيانها كله قد اعيدت صياغته بشكل اكثر تحديدا وصلابة ، لقد دخلت باب الحياة ، وعليها هي فقط ، ان تحافظ على هذه الصلابة ، انها الان تضحك من هؤلاء الفتيات اللاتي يعتقدن — في لحظة ما — ان الرجل هو املهن ، ستكون هي امل الرجل ، وليس الرجل هو املها . ولفت نظرها من نافذة الاتوبيس اعلان لرواية تعرض منذ اكثر من خمسة اسابيع ، وبدون تفكير قررت ان تدخل هذا الفيلم .

وامام شباك التذاكر ، اخذت موقفها في الطابور الطويل . كان يقف امامها رجل طويل اشيب ، وبعد برهة وقف خلفها شاب في حوالي الثلاثين من عمره . ولا تدري اي شعور هذا الذي تملكها ، فقد احست برغبتها في النظر اليه ، فقط لكي تحدق في عينيه بتحد صارخ وكأنها تقول له : انني فتاة وحيدة ، وسأدخل السينما بمفردي . وطال انتظارها ، والطابور يتحرك كالسلحفاة ، وبدأت تشعر بالتعب والملل ، متلفتة يمينها وشمالها ، وفجأة ، تسلل الى اذنها صوت هادىء رزين : لقد تعبت ، هل احجز لك التذاكر وتستريحين خارج الصف ؟. التفتت خلفها ، فاذا ابتسامة مرتسمة على شفتي الشاب وللحظة فكرت ، الا ان ضيقها جعلها تقول :

— متشكرة .. متشكرة خالص.

ومدت يدها بالنقود ، فاخذها منها وهو يسألها :

— كم تذكرة ؟

— واحدة .

— واحدة فقط ؟

— نعم ، واحدة لي .

خرجت من الطابور ، وارتكزت بظهرها على الباب الخارجي للسينما في مواجهة الشباب . ظلت تتأمله ، وهي تحاول ان تبعد نظرها عنه ، الا انها في كل مرة كانت تفشل وتعود تنظر اليه . كان شابا طويل القامة ، انيق الملبس ، يتميز بنبالة تبدو عريقة ، اذ لم يلتفت اليها اطلاقا . وربما يكون ذلك قد غاظها ، الا انها لم تصرح لنفسها ، وجعلت ترقبه ، وهو يقترب خطوة خطوة الى الشباك . وانحنى الشاب يشتري التذاكر . وما كاد يفعل ، حتى تلفت يبحث عنها ، واقترب منها وقدم لها التذكرة ، وباقي النقود ، وحين رفعت عينيها لتشكره ، كان قد مضى . احست بطعنة في كبريائها ، وخيل اليها انها قد أخطأت في شيء واحد : موافقتها وسماحها له بشراء التذكرة . ولكنها عادت تقول لنفسها : ربما سبب ذلك انني لم اضع المساحيق على وجهي .

حينما مدت يدها بالتذكرة لرجل الباب ، فكرت انه ربما حجز تذكرته بجانبها ، فابتسمت وهي تتناول التذكرة ثانية . وخطت الى الداخل بضع خطوات ، ووقفت في البهو الكبير ، وكل جدرانه من المرايا اللامعة . نظرت الى نفسها من جميع الاتجاهات ، تتأمل قوامها ، شعرها ، ملامحها ، وندمت على انها لم تستعمل المساحيق ، وهمت ان تدور حول نفسها في اعجاب بنفسها ، ولكنها تذكرت انها في مكان عام . ولا تدري ما الذي دفعها الى استراحة النساء ، ولم تكن في حاجة الى ذلك ، واخرجت مشطا من حقيبتها ، وسرحت شعرها ، امام المرآة الصغيرة المعلقة فوق الحوض ، ثم نظرت الى وجهها من الجانبين . وحين اطمأنت الى شكلها غادرت الاستراحة ، ودون ان تلتفت يمينا او شمالا صعدت الدرجات القليلة التي تؤدي الى صالة العرض ، وقدمت التذكرة الى المرشد . وقبل ان تجلس القت نظرة عاجلة على باقي المقاعد في الصف . لم ترد ان تعترف لنفسها انها كانت تبحث عنه ، فجلست وشيء من ضيق بدأ يتحرك في نفسها . كان مقعدها على الحافة ، ولم تكن الكراسي التي بجانبها مباشرة قد شغلت بعد ، فارتاحت الى هذا الخاطر ، واملت انه ربما لم يدخل بعد ، وان الكرسي المجاور لها قد يكون هو شاغله . وظلت ترقب كل الداخلين ، وفي كل مرة تأمل ان يظهر ، ونظرت في ساعتها ، لم تبق سوى دقائق وتظلم القاعة ، ويبدأ العرض ، وما زالت الكراسي التي بجانبها شاغرة . وراحت تنظر في الساعة بين لحظة واخرى في حركات عصبية . كانت تكبح جماح نفسها خشية ان يبدو عليها شيء ما . وفجأة ، لمحته يظهر في اول الممر ، وهو يسير خلف المرشد. توالت ضربات قلبها في كل خطوة يخطوها ، كانت تحدث نفسها بانه لا بد سيكون الجالس بجانبها ، وارتقى المرشد درجات السلم الواسعة التي تؤدي الى المقاعد ، الا انه مر من امامها وخلفه الشاب دون ان ينظر اليها . واذا ابتعد عنها ، شعرت ان شيئا ما قد فقد منها ، وهمت ان تلتفت وتتبعه بنظراتها الا ان الضوء بدأ يخفت وما لبث ان ساد الظلام على نغمات الافتتاحية الموسيقية .

بدات صور الجريدة الاخبارية تتوالى ، وصوت المعلق يدوي في ثبات ذاكرا اخبار العالم . بعد فترة ، اكتشفت انها لم تر شيئا ، ولم تسمع ما يقول . هزت رأسها في عنف وفتحت عينيها عن آخرهما ، محاولة تركيز انتباهها في ما ترى وتسمع . ولمدة دقيقة او اقل ، امكنها ان تعي صورة وبضع كلمات ، الا ان عقلها ما لبث ان شرد ، وعادت فاكتشفت انها لم تنتبه ، فحاولت ثانية ان تشد انتباهها الى ما يعرض امامها ولكنها

اعلان

١- الا حسناء رائعة الجمال … من الخفرات ربات الحجال
٢- فتفهمني وترضى بي قرينا … على فقري الشديد وسوء حالي
٣- وشيب عادني لولا خضاب … اكابده ويأذن بالزوال
٤- وتقبل مهرها المعدود شعرا … اعز من الجواهر واللآلي
٥- رداح زانها هيف وقد … توسط او يميل الى الطوال
٦- عروب بضة بيضاء خود … هضيم الكشح نادرة المثال
٧- لها قلب من الذهب المصفى … وطبع راق كالماء الزلال
٨- وثغر اشنب عذب الثنايا … لذيذ في السكوت وفي المقال
٩- وعينا ظبية ترعى طلاها … وصدر شامخ الخفقات عالي
١٠- ووجه مشرق كالبدر حسنا … يفيض علي بالسحر الحلال
١١- فانظم ما اشاء من القوافي … وانسى جور ايامي الخوالي
١٢- وتهوى الشعر مثل هواي حتى … لتؤثره على الدرر الغوالي
١٣- فتنجب لي غلاما المعيا … جميل الوجه محمود الخلال
١٤- وتتبعه بآخر لوذعي … اشد الى اليمين به شمالي
١٥- وانثى بعده لم يشق اهل … بها يوما ولا زوج بحال
١٦- فاني سوف اجزيها وفاء … وحبا ناره ذات اشتعال
١٧- يظل مدى الحياة له اوار … اذا خمدت براكين الرجال
١٨- وشعرا سائرا في كل ارض … يخلدها على مر الليالي

١٩- وقال لي الرفاق طلبت امرا … بعيد المنال اشبه بالمحال
٢٠- وما تغني القصائد عن عروس … اذا كان القرين قليل مال
٢١- فقلت فانها احدى الاماني … وكم اخذ الوجود من الخيال

حلب — عمر ابو قوس

فشلت ايضا ، وضبطت نفسها تفكر في ذلك الشاب . الحق ، انها لا تدري ما الذي جعلها تفكر فيه . انه فيما يبدو شاب مهذب لم تجل في راسه اية فكرة سيئة . كان فقط يريد تقديم خدمة لفتاة . ولكن تفكيرها هي الا يعني انها كانت تنتظر شيئا ما ، اكثر من مجرد خدمة ؟. حاولت ان تستبعد هذه الفكرة « انني لا اريد اكثر من تأكيد حريتي وشجاعتي . هل تفكيري هذا يعني انني لم اكن جادة بما يكفي ؟ » انتهت الجريدة ، وتوالت الاعلانات ، ثم مقدمة لفيلم سيعرض قريبا . وحين اضاءت الانوار وجدت نفسها تنظر الى الخلف ، تبحث بعينيها عنه ، ولما لم تعثر عليه ارتدت رقبتها وقد خجلت من نفسها . واقترب بائع المرطبات ، فتناولت زجاجة كوكا كولا ونقدت البائع الثمن ، ثم اخذت ترشف منها في بطء . لم تكن تحس لها طعما ، ولا تدري لماذا اشترتها ، لم تكن بها ادنى رغبة في اي شيء .

عادت القاعة الى ظلامها ثانية ، وبدأ عرض الفيلم . شيء ما بدأ يتحرك في نفسها ، لا تدري ما هو تماما . وفي الظلام شعرت بمن يقترب منها ، ثم أضاءت البطارية ، وقاد المرشد مجموعة من الفتيات فجلسن في الكراسي الخالية بجانبها ، تأملتهن على الضوء الخافت ، كن في سن متقاربة منها ، وجلسن في اماكنهن ، وكانت تنبعث منهن ضحكات مكتومة . وشعرت انها فشلت فيما كانت قد صممت عليه ، لم تعد تعي شيئا مما يعرض امامها : صور تتلاحق ، وحوار يتبادل ، دون ان تفهم شيئا . لا تدري كم من الوقت مضى عليها ، الا انها فجأة وبدون تفكير مسبق ، وقفت وغادرت السينما دون ان تلتفت الى شيء . حينما كانت تنزل السلم في حذر خشية السقوط في الظلام ، كان صوت بطل الرواية يضحك ضحكة عالية ساخرة .

القاهرة — مصطفى ابو النصر



الدكتور محمد رجب البيومي

البكري في معترك السياسة

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

ينسب الى الاستاذ الامام محمد عبده انه لعن السياسة ومادة ساس يسوس ومشتقاتها ، وذلك لما شاهده من عصف السياسة برجالها في عصره ، واكثرهم من ذوي العزم الصادق الذين يحتالون للامر ، فيتخلصون من الشباك ، ومع هذه الحنكة الماهرة ذات الدربة والمران فان السياسة تفاجئهم من دواهيها الخاتلة بما لا يقدرون ، فكيف تكون العاقبة اذا خاض غمارها شاب ناشىء غير مجرب ! او ولج اليها انسان من نافذة جانبية دون ان يأتي البيت من بابه الاصيل !

لقد تبوأ السيد محمد توفيق البكري منصبه الديني الجهير ، فلم يشأ ان يسلك مسلك أخيه وأبيه في محايدة السياسة ومجافاتها الا اذا لزم الحال ودعي الى ذلك من أصحاب الامر ، كما قام والده بدعوة اعيان الامة في منزله بايعاز اسماعيل، وكما اضطر اخوه الى التوقيع على وثيقة عزل توفيق مع مئات الموقعين ! ولكن السيد رأى ان يكون رأسا في ادارة الشئون السياسية ، فزاحم ، وناضل ، ولم تكن لديه الاعصاب الفولاذية لتحميه من الانهيار المفاجيء في حلبة الصراع ! كما انه فقد خلق التؤدة والتربص ، ومطاولة الايام ، واستعجل الثمرة القريبة فهاجم ونافس ، ثم ضل طريقه في ضباب الحوادث فلم يعرف مهيعا قويما يلتزمه ، بل تردد بين الوفاق والشقاق، والثورة والمسالمة، والاستخذاء والتكبر، حتى صار يصادق في الغد عدو الامس ويعادي في اليوم صديق الغد ! وهكذا دخل السياسة عاطفيا وجدانيا ، لا مفكرا منهجيا ، والرجل العاطفي المنفعل قد يكون قمة في الادب ، ولكنه لن يكون ذروة بين السياسيين !

اني لاذكر السيد محمد توفيق البكري في مضطربه السياسي المرجحن ، فأتذكر معه أديبا من أدباء عصره ، كان على مثل حاله في القلق والتنقل وعدم الاستقرار على وجه خاص ، ذلكم هو الكاتب الكبير ابراهيم المويلحي فقد كان لا يعرف وجهته السياسية بين الناس يقف حينا في صف اسماعيل بعد ان ينقم عليه ، ثم يتمدح بآثار عبد الحميد أسبوعا وينقلب عليه فيما يليه ، ويناصر صديقه عباسا ثم يعمد الى الدس له عند السلطان، ويثني على الاستاذ الامام ، ثم يقف لمحاربته في فتاويه الدينية وهو لا يبلغ عشر مبلغه في الفقه والافتاء ! هكذا كان المويلحي الكبير ! وهكذا كان البكري في أكثر مواقفه ، وانها لكثيرة تتطلب السرد المنظم كيلا تضيع الحقائق في غبار كثيف ! بدأ السيد البكري يلج موالج السياسة منذ أختير شيخا لمشيخة الطرق الصوفية ، فتنوعت مواقفه مع تركيا وعباس ، ومحمد عبده والانجليز تنوعا مبالغا يدفعها من النقيض الى النقيض ! وسندع الحوادث الصادقة تتحدث بما كان !

لم يكن السيد يأخذ مكانه حتى رحل الى القسطنطينية ، فدعاه السلطان لحضرته اكثر من مرة وقلده النيشان العثماني الاول ومنحه رتبة الوزارة العلمية ، وهي قضاء عسكر الاناضول ، وقد سبق ان اشرنا الى دور أبي الهدى الصيادي في اغداق هذه النعم الجزيلة مرة واحدة على الشاب الناشيء ، بحيث كان يكفي ان يتقلد نيشانا من الدرجة الثانية او الثالثة فيعود وقد اعتقد انه ظفر بالشيء الكثير ! ولكن رغبة الصيادي في اصطناع شيخ مشايخ الطرق ونقيب الاشراف بمصر ليحارب به جبهة القادرية في العراق قد زينت له ان يرفع مقامه لدى السلطان فوق كل مقام ، حتى يرجع غريقا في مكارم أبي الهدى فيذيع فضائله بين اتباعه ، وهم كثرة لا يستهان بها في البلاد .

رجع السيد توفيق الى مصر ليجد الجرائد المصرية تستقبله برتبه والقابه استقبال الفاتح المتوج فالمؤيد تعلن في ٢٢ صفر سنة ١٣١٠ — بعد مقال طويل في منزلة السيد — ان هذه الرتب لم تمنح لاحد من الناس مرة واحدة في تاريخ الدولة العثمانية سواه ، وصحيفة الاستاذ تعلن ابتهاجها بسيد ارتفع مقام سياسته الى أسمى المراتب ، وان امير المؤمنين اعرف الخلفاء بمقام اهل الفضل والسيادة فالسيد البكري بذاته الشريفة فرد لا يثنى بين الناس فيما له من الفضائل والخصائص ! وقد عرف السيد قدر رتبه والقابه فساق مدائحه للسلطان وأبي الهدى ، وصهاريج اللؤلؤ يجمع بعض ما قاله نثرا

وشعرا بهذه المناسبة اللامعة ! وكان المنتظر ان يظل السيد على ولائه لامير المؤمنين والخلافة التركية ! ولكنه عمد الى اغضابه ، فجاءت التقريرات عنه الى السلطان بما لا يحمده من تنكره ! والحق ان السيد قد سيق الى ذلك سوقا لم يتبصر عواقبه ، وقد أتاه ذلك من ناحية عباس ، والمسألة هنا تحتاج الى توضيح !

لقد رجع السيد من تركيا مزهوا فخورا برتبه ، وكأني به وقد أعجبه ان ينال من الالقاب ما لم يتح لاكبر عالم في مصر ، فأخذ يقول لجلسائه « لن يظفر سمو الخديوي بالانعام على رتبة الوزارة العلمية على مصري غيري » . وانتقل الحديث الى عباس فغضب وانعم بالنيشان العثماني الاول على الشيخ الانبابي والشيخ محمد العباس المهدي وقاضي القضاة جمال الدين افندي ثم ارسل للسلطان ملتمسا بالانعام على شيخ الازهر والمفتي برتبة الوزارة العلمية وهي قضاء عسكر الاناضول ، وعلى القاضي برتبة قضاء عسكر الروملي فلم يصادف مطلبه قبولا ، واذ ذاك تضاعف غضبه على السيد ، وازور عن لقائه فبادر بالاستعفاء من نقابة الاشراف فأجابه :

يخطىء بعض الكتاب فيجعل هذه الحادثة من اسباب الانفصال النهائي بين السيد البكري والخديوي سنة ١٩٠٨ ، ويرجع اليها اسباب انهياره العصبي ، وهو وهم صريح ، لان القاب السيد قد سيقت اليه سنة ١٨٩٢ ، وقد قال الرجل قولته الاليمة في اعقابها ، فبادر الخديوي اذ ذاك بالانعام على العلماء وطلب الوزارة العلمية لهم من الاستانة ، ثم عفا الخديوي عنه بوساطة علي يوسف واصبح حينا بعد ذلك من اخلص خلصائه ، يسعى لمرضاته في الازهر والاوقاف ودعوى الخلافة ، فكيف يقول الاستاذ عمر الدسوقي بالجزء الثاني من كتابه ما نصه :

« وقد كان اخفاق الخديوي مضاعفا.لغضبه فتوعد البكري وبلغ البكري هذا الوعيد فأزعجه واستولى عليه الهم ثم الوهم حتى خيل اليه ان اعوان الخديوي يطاردونه لقتله فلجأ الى احدى حجرات بيته ولزمها وامتنع عن الزوار وكان البكري يبعث في أثناء ذلك برسائله الى المحافظة والنائب العام والى رئيس النظارة يستنجدهم ويطلب حمايتهم .. الخ »

ان المحنة الاخيرة التي انهارت بها اعصاب السيد بعيدة الصلة عن فخره على الخديوي في احرازه الالقاب كا توهم الاستاذ عمر الدسوقي ، وكما توهم الاستاذ طاهر الطناحي في مقاله عن السيد بكتابه « الساعات الاخيرة ص ٧٧ » ويكفي ان يكون التاريخ شاهدا حاسما على ذلك ، فالمدة ما بين سنة ١٨٩٢ ، سنة ١٩٠٨ ابعد من ان تتيح اختلال اعصاب لكلمة قيلت منذ ستة عشر عاما ، بدا بينها من الوئام بين الخديوي والسيد ما سنلم به عن قريب ! وان كمن مع ذلك اثرها النفسي الذي لا يجحد فانضم الى غيره من اسباب العداء الكثيرة التي تمخضت عنها الايام .

مهما يكن من شيء لقد ادرك السيد خطأه ، فسارع الى استرضاء الخديوي بمساع كثيرة ، يهمنا منها الان موقفه من السلطان العثماني ، اذ نسي السيد فضل السلطان عليه فيما اسبغه من الالقاب ، فأحرق سفنه التركية حين زين لعباس ان يستقل بالخلافة ، ثم مدحه بقصيدة اشار فيها الى احقيته بامارة المؤمنين ، وقد كتب يوسف طلعت باشا تقريرا خاصا عن ذلك رفعه الى المابين الهمايوني بالاستانة ونشره السيد محمد رشيد رضا بالجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامام ص ٥٦٢ وما بعدها وجاء فيه عن السيد توفيق البكري بعد حديث طويل عنه :

« وسمو الخديوي يريد ان يجعل لنفسه سلطة دينية آلتها الازهر وماليتها الاوقاف وقد حدث بهذا كثيرين وقال ان اوروبا تهاب البابا والسلطان لاجل السلطة الدينية وهذه سهلة علينا ، وانه ما دام الشيخ محمد عبده مفتيا للديار الاسلامية وعضوا في الازهر وفي مجلس الاوقاف الاعلى وفي مجلس شورى القوانين فلن يتم له في ذلك الا العمل الرسمي القانوني الظاهر لكل احد ، وان الشيخ توفيق البكري الذي حسن له هذا الراي لا نفوذ له في البلاد ، وقد ساءت الناس قصيدته التي زين فيها للخديوي دعوى الخلافة ورضي عليه وحده بسببها ، وقد اتخذه الان ساعيا فيها بينه وبين مشايخ الازهر ولكن بدون ذكر الخلافة » ثم ذكر السيد رشيد ان بالتقرير سبا كثيرا في البكري لم يجد ضرورة لنشره ، وهو مصدق بطبيعة الحال لدى السلطان !

هذا المسعى المنكر لدى الخلافة العثمانية كان حريا ان يقطع صلة السيد البكري بها ، فلن يجد بعد منها ظهيرا يعينه في مآزقه ! ولعلنا نجمل القول في سياسته العثمانية بالحكم عليها والتسرع والجموح ، وعدم الالتفات الى يدها الفضلى عليه ، حين منحته من الالقاب ما عز على شيخ الازهر وقاضي القضاة ، وقد تكون مناوءة الخلافة العثمانية مقبولة لدافع وطني صادق او ديني مخلص ، اما تكون مرضاة للخديوي وحده ! فما ابعدها عن السداد ! ولا سيما وقد افتخر بألقابها من قبل على عباس !

نترك الحديث عن دور السيد مع السلطان الى دوره الطويل مع عباس ، وقد رأينا كيف اغضبه حين اشاع انه لا يستطيع ان يظفر برتبة الوزارة العلمية لاحد من العلماء ، وكانت هذه بداية الصراع بين الرجلين ، واذا كان من المعروف ان السيد قد تلقى دروسه الاولى بمدرسة الانجال فكان رفيق الامير وزميله ، فان هذه الصلة المبكرة كان من الممكن ان تكون سبيلا لصداقة وطيدة يرعى فيها الزميلان حقوق النشاة لو احسن السيد اغتنام الفرصة ، فلم يجاهر بما يجلب الشوائب على الود

المنتظر ، لا سيما وقد بدأ عباس مصافاته فلم يتلكأ في اختياره مكان اخيه ، واسرع باسناد جميع الوظائف البكرية اليه ثم اصدر امره بتعيينه عضوا في مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، وقد يقال ان جميع ذلك كان للشقيق الراحل فاستولى عليه السيد كحق طبيعي ، ولكن يقال مع هذا ان عباسا لو اراد التعويق لفعل او لاكتفى من الكل بالبعض دون ملامة ، ولكنه جامل فأفاض حين اضاف الى ذلك كله الانعام على السيد بكسوة التشريف من الدرجة الاولى وبالنيشان المجيدي الثاني .. وكل ذلك في نصف عام !

لقد عثر السيد توفيق حين بدأ المباهاة فأحرج صدر زميله القديم وصديقه القائم بالامر واضطر الى الاستعفاء من نقابة الاشراف بارادة عباس لهذا الخطأ بعينه ، لا لسعيه في تقدير ميزانية للازهر ، كما احب السيد ان يفهمنا ذلك ، وقد ناقشنا هذا الموضوع في الفصل الخاص بنقابة الاشراف بما لا يدع مجالا للشك في هذه الحقيقة ومما لا شك فيه ان السيد قد غضب لهذا الاعفاء .. ولم يشأ ان يستكين للامر منتظرا ان يحل الزمن عقدته ، فيفيء عليه عباس وده العازب ، ولكنه اندفع الى مازق جديد ففي نوفمبر سنة ١٨٩٧ عاد الامير من مصيفه باستامبول فنشرت جريدة الصاعقة التي كان يصدرها الصحافي اللاذع احمد حلمي قصيدة هجائية لعباس بعددها الصادر في ٤ نوفمبر سنة ١٨٩٧ وفي مقدمتها :

قدوم ولكن لا اقول سعيد — وملك وان طال المدى سيبيد
علام التهاني هل هناك مآثر — فنفرح او سعي لديك حميد
تمر بنا لا طرف نحوك ناظر — ولا قلب من تلك القلوب ودود
تذكرنا رؤياك ايام انزلت — علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا — مصوب سهم بالبلاء سديد
فلما توليتم طغيتم وهكذا — اذا اصبح التركي وهو عميد
فكم سفكت منا دماء بريئة — وكم ضمنت تلك الدماء لحود
وكم ضم بطن البحر اشلاء جمة — تمزق احشاء لها وكبود
وكم صار شمل للبلاد مشتتا — وخرب قصر في البلاد مشيد
وسيق عظيم القوم منا مكبلا — له تحت اثقال القيود وئيد
فما قام منكم بالعدالة طارف — ولا سار منكم بالسداد تليد
كاني بقصر الملك اصبح بائدا — من الظلم ، والظلم المبين يبيد
ويندب في اطلاله البوم ناعبا — له عند ترداد الرثاء نشيد
اعباس ترجو ان تكون خليفة — كما ود آباء ورام جدود
فيا ليت دنيانا تزول وليتنا — نكون ببطن الارض حين تسود

وقد ذيلت القصيدة بامضاء مصطفى لطفي المنفلوطي فاهتزت لها دوائر القصر ، واسند الاتهام باديء ذي بدء الى الشاعر وصاحب الصاعقة ، ولكن الانباء قد تواترت بان السيد محمد توفيق البكري قد اشترك في نظم القصيدة وهو صاحب المطلع ، وتضاربت الاقوال في مبعث هذا الهجاء فصوره قوم على انه انتفاضة وطنية وصرخة مدوية لمقاومة استبداد القصر ، وقال اخرون انه خيانة كبرى ارتكبها المنفلوطي والبكري بتحريض الاحتلال اذ ان بريطانيا كانت تدفع الادباء الى مهاجمة الخديوي وعبد الحميد معا (١) .. ثم عظمت الضجة فوقفت صحف المقطم والمنبر والصاعقة تدفع عن المنفلوطي، وكتب نجيب الحداد في مجلة لسان العرب ١٧ – ١١ – ١٨٩٧ مقالا حماسيا يدافع عن الشاعر ويقول مهونا من شأن جريرته « ان الحكومة قد اخطأت في توليها هذه القضية لانها ان كانت تعتبر هذه القصيدة هجوا فهي قد شهرت هذا الهجو، واعانت عليه بما جعلت له من الاهمية» وظهرت جريدة ممفيس التي كان يحررها الاستاذ محمد مسعود تقول بالعدد ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٧ وما وليه ما نلخصه في هذه النقاط :

١ – ان المنفلوطي قد حصل على مكافأة كبرى في قهوة بالقرب من مدرسة الفرير الكائنة بجوار سراي السيد محمد توفيق البكري بالخرنفش !

٢ – ان هدف السيد البكري من تحريض المنفلوطي على الطعن في عباس هو الانتقام من رجال المعية اذ لم يلحقوه في زمرة العلماء الذين توجهوا الى محطة العاصمة لاستقباله يوم عودته وان البكري ناقم على الخديوي اشد النقمة من يوم ان عزله من نقابة الاشراف.

٣ – ان المنفلوطي قد انكر صلة السيد البكري به لانه وعده بتعيين محام للدفاع عنه وموافاته بالمأكل والمشرب والمال اثناء سجنه .

وقد صدر الحكم القضائي بسجن المنفلوطي ستة اشهر واحمد فؤاد الصاعقة عشرين شهرا وقالت جريدة ممفيس : « ان الانجليز قد تدخلوا في التحقيق لابعاد التهمة عن البكري ، ومن اجل ذلك غيروا محققا بآخر ، وعينوا المستر كوربيت نائبا عموميا لمباشرة التحقيق بعد فصل النائب العمومي المصري اذ رفض توجيهات المستشار القضائي الانجليزي » وواضح ان ابدال المحقق بغيره وتعيين نائب عمومي جديد لمباشرة التحقيق كان تدخلا انجليزيا يوحي بالتهمة البكرية ، كذلك زاد سخط عباس على السيد ، وامر رجاله بمقاطعته، واستبدت الهواجس بالبكري عدة سنوات ولكنه بحث عن حل موفق فعثر عليه بعد حين !!

لقد كان من عادة السيد البكري اصطناع اصحاب الاقلام من رجال الصحافة بما يمنحهم من هبات تنقذهم من الافلاس في عهد لا تستطيع الصحيفة النزيهة فيه مواصلة حياتها دون تعضيد ! ظهر ذلك لي من حديث السيد محمد كرد علي بمذكراته ج١ ص ٣٤ اذ قال عن البكري «بعث الي ذات يوم يستدعيني الى داره لغرض مهم فذهب الفكر حالا الى انه يريد ان يستنصرني في مسألة له خاصة وقدم لي مبلغا من الجنيهات لمعاونتي على اصدار المقتبس فقلت له يا

١ – الشوفيات المجهولة ج٢ ص ١١٤ للدكتور محمد صبري

لا فـرار

الى صغيرتي « رلى » حيث لا أعلم

شدي علي فم الضماد ، اكـاد اصرخ مـن جنونـي
جرح يسيل على فمي ٠٠ جرح يسح علـى عيونـي
والنار تغضب فـي العروق ، تكاد تعصف في سكوني
شدي علي ضمـادك المنذور يحفـر لـي جبينـي
فـوق الجراح انا ، وفوق الموت ، والالـم اللعـين

سأظل اضرب فـي ليالي الريـح ، اسأل عن سمائي
حمـراء لوحها الكفـاح ، ورش قبتهـا دمائـي
ولقـد زرعـت نجومها خضـراء في لون الرجـاء
اسمـي علـى الافاق محفـور كرغرغـة الضياء
اطعمـت عـين الشمس حنجرتي ، ولم تسمع ندائي

يا انت ، ذاهلة الضمير ، حـذار يسمعنا الجـدار
الصمت سيدنـا الكبير ونحن يا كبـدي صغـار
ابتاه ٠٠٠ ان الـدرب ثعبان ، وليس لنـا فـرار
هاتـي اشـد يديـك قبرتـين ، فـي قلبـي القرار
نمضي معـا ، في الوهـم ، تسفعنا الريـاح ولا نثار

قطر　　　　راضي صدوق

صاحب السماحة ، ان للمجلة راس مال ودخلها يفـي بخرجها وشكرته وقد ظهر علي الانقباض » .

ولقد اشار الاستاذ عباس محمود العقاد في كتابه « رجال عرفتهم » ص ٥٩ الى ان السيد البكري ارسـل لصاحب الدستور الاستاذ محمد فريد وجدي مبلغا من المال عند تأييده له يوم امتناع مشايخ الطرق عن حضور حفلة المحمل ، فلم يقبل منه فريـد وجدي غير قيمـة الاشتراك لعام واحد ، ثم رد اليه البقية قبل ان ينتصف النهار » .

ومن المعروف تاريخيا ان السيد كان شديد الصلة بجريدة المؤيد وصاحبها علي يوسف ، وكم وقع الصحافي الكبير في مآزق مالية ، مما يجيز احتمال مساعـدة البكري لصديقه ، ما دامت اعانات الصحف من خططه السياسية !! وقد تكون صداقتهما منزهة عن المادة لترفع علي يوسف ، فهذا لا يجزم به عن يقين ، ولكننا نشهدصلة قوية بين الرجلين ، جعلت صاحب المؤيد يبذل وساطتـه الكثيرة المتكررة لـدى الخديوي عباس حتى استطاع ان يستل سخيمته وانيرجع بالمياه الى مجاريها قبل ان تتكدر النفوس فأثمر مسعى الشيخ علي يوسف ، وصفح عباس عن صاحبه !

وقد اكد هذه الحقيقة احد اصدقاء السيد علـي يوسف وزملائه في المؤيد هو الاستاذ عطية شلبي اذ نقل عنه الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه « ادب المقالة الصحفية في مصر » ـ الجزء الرابع ـ (علـي يوسف) ص ١١٣ ما نصه :

« هذا وقد كانت بين الخديوي عباس الثاني والسيد محمد توفيق البكري جفوة فاتهم الاخير بانه قائل قصيدة الهجاء ، ولكن المغفور له السيد علي يوسف باشا سعى في اخراجه من هذه التهمة ونجح في مسعاه ! »

اما احمد شفيق باشا فيؤكد دور الشيخ علييوسف في تصفية العلائق بين الخديوي والبكري اذ يقول فـي مذكراته الجزء الثاني ص ٣٥ :

« وقد ذكرته ـ علي يوسف ـ بهذه المناسبة انـه هو السبب في اتصال السيد توفيق البكري بعد مجافاته لانه سعى في صفح الخديوي عنه » .

ونخرج من هذا كله بان الخديوي قد تناسى كـل شيء واعاد السيد الى نقابة الاشراف سنة ١٩٠٣ بعـد تولية السيد البيلاوي مشيخة الازهر ، وبدات صفحـة جديدة في العلاقات بين الرجلين تمخضت عن اثار هامة.

دار المعلمات ـ الفيوم　　　　محمد رجب البيومي

رشيد ايوب

بقلم شكر الله الجر

* * *

تلك النرجسة الجميلة في حدائق الادب ، والروح المنبثقة من شعاع القمر .

شاعر الاحلام والانغام .. شاعر البؤس والشقاء . شاعر الضحكة المهلهلة يطلقها في وجه حظه العابس المتجهم .

عاش متعاليا على دهره نظيف الغلالة حلو الشمالة . ومن مواهب الحياة عليه طبيعة نفس تتلاءم مع شاعريته الحالمة . وامانيه الحائرة في ديوانيه اغاني الدرويش وهي الدنيـــا .

خرج منذ خمسين سنة من سفح جبل جبار اسمه (صنين) الى مدينة المتناقضات نيويورك .. وكما هي معبد للاصنام كما يقال عنها هي ايضا هيكل للفن والجمال وبدائع الخيـال .

نزل ايوب في اوساطها وعدته لاقتناص الثروة خلق نبيل وساعد مفتول . وان هي الا جولة واختها على ملعب الاقدار حتى عاد مندحرا وقد تمزقت اعلامه وتبعثرت احلامه فانطوى على نفسه في زاوية من زوايا الفشل .. راح في ظلها يدوزن اوتاره ويغازل اشعاره ويمد يـده حينا بعد حين الى قمم صنين يغترف مـن ثلجه حفنـة يصبها في كأسه مبردا بها لواعج نفسه .

وما ان ارتفع للرابطة القلمية صداح وامتد لها جناح حتى سمعنا لرشيد ايوب نغما يختلف عن انغام المفردين من حوله فاذا هو نسيج وحده بين رفاقه يمر قـوس السنين على اوتار كمنجته فيرقصها بين يديه رقصـة الطائر الذبيح ويصيح .

هات الكمنجة هاتها

وأعـد علـى سمعـي حد	يث الحـب من رناتهـا
فالليـل مـد رواقـه	والخمـر فـي كاساتهـا
والقلـب دق ليجمـع	الاحـلام بعـد شتاتهـا

هات الكمنجة هاتها

فالليـل ساه ساكن	مصغ الـى حركاتهـا
تهفـو القلـوب لشدوها	وتهيـم فـي أناتهـا
يا صاحبي هجرت طيـور	حديقتـي شجراتهـا
انا اعشق النفس التـي	تلتـذ فـي حسراتهـا

ومن أجل هذه النفس التي تلتذ في حسراتها احببت رشيد ايوب ومن سمعني اغني اغنيتي « معنى الوجود » منذ ثلاثين سنة عرف كيف توشج الآلام بـين روحـين وتتشابه الانغام بين شاعريـن دون ان تتلاقى العيـون والعيون . ومن تشدك اليه آصرة الالم هو غير من تشدك اليه آصرة القلم فكيف اذا اجتمع الاثنان .. وهاك مقطع من قصيدة لي في معنى الوجود .

انت لولا الهم لا تفقـه معنـى للوجـود ؟
انت لولا الحزن لا تسمع انغـام الخلـود
لا ولا تسمع همس الله في قصف الرعود
ان في الحزن سرورا لا تراه في السرور
ان في الآلام لـذات لاربـاب الشعـور

صاح كـم اشعلت الآلام في ليلي نـورا
ولكـم هزت لي الاحزان في الامس سريرا
وحنـا الهـم على مهدي لارضاعي صغيرا
ضاحكا في وجـه امي ناقشا فيه سطورا
ساكبا من عينهاالسوداء في عيني الضياء
مسمعا اياي من انغامها لحـن السمـاء

اجل ان من يسمع من وراء ألحان الكآبة ألحـان السماء لهو ولا شك من سلالة الصالحين .

لمـا اصدرت مجلتـي « الاندلس الجديدة » وهـي ادبية مصورة عام ١٩٣١ في مدينـة الغمائـم الزرقاء ريو جنيرو آليت على ان اجعل من صفحاتها روضة لبلابل الشعر العربي في أي قطر من الاقطار فزقزق على افانينها شعراء من مصر والعراق والاردن وسوريا ولبنان بـين مغترب ومقيم . وكان لها حظ من يراعة رشيد ايوب في نيويورك يرسل القطعة تلو القطعة فأنشرها فـي اطار من التقدير ومما قالته يومذاك جريدة السائح الغراء وهـي لسان حال الرابطة القلمية « ان رصيفنا صاحب الاندلس على رغم ما بيننا من مسافات شاسعة ما برح يوصـل روحه باروحانا هنا وكأنه يعيش في جونا » .

ويوم اعتزم رشيد ايوب اصدار ديوانه هي الدنيا كتب الي يقول « الك ايها الاخ الودود ان تضع المقدمة لديواني الجديد وانا الضمين ان كلمتك فيه ستضاعف من قيمته وتزيد في رونقه الخ .. » .

وهاك قطع من المقدمة التي صفتها لتلك الاناشيد الخالدة في الديوان :

« لم ار حتى الان شاعرا تفرد باغاريده الحنونـة فغنى ربيع بلاده وخريفها وصيفها وشتاءهـا وراعيهـا وناطورها يهز بهم أراجيح الذكرى ويهدهدهم على انغامه باسلوب يفيض بساطة وجمالا مثل هذا الشاعر على مـا بينه وبين بلاده من تراخي الزمن وطول الهجر قال مناجيا بلدته بسكنتا متذكرا لياليه المشرقة على ضفاف واديها .

الا أيـن وادي الغـرام	فقـد ظـل قلبـي هناك
فانـى لعينـي المنـام	وقلبـي استلـذ الهلاك
هناك ـ بوادي الغرام	
لقد طـال عهـد النوى	ومـرت عليـه السنون

نســـيت مكـان الهـــوى ومستودعـــات الجنـــون
الا أين وادي الغرام
فيـــا خافقـات الريـــاح امـا مسعد في الطريـق
فجسمـي براه النـــواح فهـــلا لروحـــي رفيـق
الى ان يـزول الظـــلام

ومن شـــعره فــي الحنــين :

يــا ثلـج قد هيجـت اشجاني ذكرتني امـــي بلبنـــان
يا ثلج قـد ذكرتنـي الوادي متنصتـا لغديـره الشادي
يا ثلـج قـد ذكرتنـي الموقد ايـام كنـا حولـه ننشـد
ايـام كنا قربه نرقد ..

ان شاعرا حمل من خيمة الناطور منجيرته وظل يوقع الحانه عليها طيلة هذه العقود من السنين في عالم متجدد الالحان متعدد الاصوات والانغام كالولايات المتحدة دون ان يتسرب الى جوهر طبيعته رشاش من بيئته لهو شاعر اصيل الطابع قوي المشاعر صادق الاحساس .

وحاشا لهذا الدرويش اللبناني ايوب ان تقتلع مـن بين اضلاعه تلك الروح القروية الزاخرة بكل معاني الجمال لتستبد لها بروح عجينية تلين وتتأثر بظواهر الحيـاة المحيطة بها فتنسيها شخصيتهـــا الاصيلة وصوفيتهـا المتحدرة من شلالات روح الشرق القديم وهو القائل .

فمـا اشقى الـــذي يهتم للدنيـــا ومـــا أغبـــى

واليك به مقهقها في وجه الغرب هازئا متهكمـــا متطلعا الي ناطحات السحاب في وجوه وكأنها قصور من الــورق ..

يـــا طالــب الدنيـا ومـــا ادركـت في الدنيـا المعانـي
فكفيـــت نفســك بالغنـــى وانـا غنى نفسـي كفانـــي
لكـــن مغانيـك التـــي شيدتهـا ليسـت اغانـــي !

ان من ينطق بمثل هذه الحكمة لهو من دراوشـــة هذا الشرق بما فيه من اشراق روحاني وتفوق عريـــق وقناعة راضية عن قسمتها في الحياة .

دخلت مرة احدى المكاتب الكبرى في الريو جنيرو لاشتري كتابا . واذا بسيدة برازيلية تقف الـــى جانبي وتسأل بالحاح عن رواية « غرازيللا » للشاعـر الفرنسي لمرتين . وكم كان اسفها عظيما عندما قيل لهـا ان الطبعة الاخيرة من هذه الرواية المترجمة الى البرتوغالية نفـدت كلهـا .

مائة سنة ونيف مرت تلاعب اذيالها على ضريـــح الشاعر المسجى تحت قبة « البانتيون » وما يزال فـي مكاتب العالم من يفتش بلهفة عن مؤلفاته العاطفية . بيـد انها العاطفة الزاخرة بالحب والجمال يجلوهـــا الادب الصادق في كؤوس من الاحساس العميق هي ما يجتذب النفوس اليهـا .

وما دام على سواحل (بروسيدا) الايطالية صيادون وزوارق وشباك تنشر وتطوي . وفي سهولها هامات تعلو وتنخفض في مواسم الزرع والحصاد . وفي اكواخهـــا فتيات يحلمن بالحب والسعادة « فلمرتين » حي فـــي روايته « غرازيللا » الى ما شاء الادب العاطفي الرفيع .

وما دام في قمم لبنان المعلقة على السحاب رعـــاة ينفخون المزمـــار ويغنون الميجنـــا . وعجائـــز يشغلـن مصابيحهن في احشاء الظلمة وشيوخ تجالس تذكاراتها حول مواقد الشتاء . تعبث ملاقطها بالجمر والرمـــاد . وصبايا تفتل مغازلهـــا على اعتـــاب المنازل في عشيات الصيف وشباب ترقص الدبكه ونواطير تنصب خيامهـــا في كروم الجبل وكواعب ترقص في ضوء القمر فرشيد ايوب خالد في ارواحهم وقلوبهم كما هم خالـــدون في شعـــره .

والان يا رشيد ــ ايها الدرويش الحبيـــب وقـــد نسجت رياح السنين على صفائح قبرك في بلاد غريبة ما ينسج العنكبوت .. قل لي بروحك الطاهرة أليس مـــن غرائب الاقدار ان تمتد بي الاعوام فاعود بعد غربة الثلاثين عاما لاستريح في افياء هذا الجبل الاخضر ثم لا ألبـــث ان ارى ذاتي موزع القلب بـــين جنوب الارض وشمالها اطل من قمم التذكار على مهرجانات الموت تقام على ضريح بعد ضريح لاخواني الشعراء ثم اراني واقفـــا كالحارس الابله على مدينة الاموات اغمر قبر هذا بالزهور وانضـــح البخور .. واوقد على قبر ذاك الشموع وانثر الدموع .

أليس هذا من مهازل البقاء يا سماء ؟

جبيل ــ لبنان **شكر الله الجر**

الحسناء والبلبل

جلست الـــى قفص البلبـــل
فغنيت لي كمـــا غنـــى لي !
تعالـــي الى جانبي واسحـــري
سماعي وقلبي ولي عندلي ..
فصوتك اجمـل من صوتـــه
وانعم مـــن لمسة المخمـــل
اراه تعلـــم منـــك الغنـــاء
تباهي بهـــذا ولا تخجلـــي !
يرفرف فـــي سجنه منشـــدا
يريـــد انفلاتـــا مـــن المعـــزل
اطال التأمل فيـــك كثـــيرا
بحسنك كـــم ود ان يختلي !
فانت ضلوعي هنا تعتلـــين
وبلبلنـــا غصنـــه يقلي ..
وراح يسبح فيـــك الجمـــال
وكم غـــرت منه فلا تسألـــي !

زحله ــ لبنان **رياض معلوف**

عبدالله غوشه - ضياء الدين الخطيب
سعيد زين الدين - يوسف النجار

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ - الشيخ عبد الله غوشه

يمثل الشيخ عبد الله غوشه نموذجا عصريا لرجل الدين المثالي ، البعيد عن التزمت ، المتعالي على التعصب ! ويتسم هذا الشيخ الوقور بزي أنيق ، وحديث رقيق ، وبعقل نير ، ويعشق سماحته كل نافع مفيد ، ويصبو لكل طريف جديد !

ما ذكرت يوما هذا الشيخ العصري ، الكبير في جسمه وعقله، الا وذكرت قولا للرسول الكريم هو « الحكمة ضالة المؤمن » وكلمة لزعيم الهند الروحي المهاتما غاندي هي :

« لا أريد لبيتي أن يكون مسورا من جميع الجهات !

ولا أريد ان تكون نوافذي مغلقة !

أفتح بيتي للشمس والهواء !

وأترك عقلي مفتوحا لكل ثقافة تحقق انسانيتي ، او تعمق معرفتي مهما كان لونها ومأتاها !

اريد ان تهب على بيتي ثقافات سائر الامم ! » .

ولد سماحته في بيت القدس عام ١٩٠٨ وأتم دراسته الثانوية المتوسطة في « روضة المعارف الوطنية » في عهد مؤسسها الشيخ محمد الصالح وفي عام ١٩٢٢ قصد سماحته الازهر الشريف وانتسب له ونال الشهادة العالية في عام ١٩٢٥ ، وبعد ثلاث سنوات سلخها في مدرسة تخصص القضاء الشرعي بالازهر الشريف نال شهادة التخصص في الشريعة الاسلامية وهي أعلى شهادات التخصص ويلقب حاملها بلقب « علامة » كما جاء في البراءة الملكية الممنوحة له اذ جاء فيها : « من فؤاد ملك مصر بعناية الله تعالى الى حضرة العلامة الشيخ عبد الله غوشه » . واشتهر سماحته في كافة مراحل دراسته بانه كان « الاول » بين أقرانه .

وعاد الشيخ غوشه الى بيت المقدس وعين استاذا للدين واللغة العربية في ثانوية الخليل ، والتحق بمعهد حقوق القدس ونال الشهادة عام ١٩٣٢ ، والجدير بالذكر ان اغلب دروس هذا المعهد كانت تدرس باللغة الانكليزية .

وفي عام ١٩٣٤ نقل سماحته رئيسا لكتاب محكمة الخليل الشرعية وظل يزاول عمله هذا حتى عام ١٩٣٨ اذ عين قاضيا شرعيا في يافا وبقي يمارس القضاء الشرعي متنقلا بين الناصرة وجنين والخليل ونابلس الى ان رقي عام ١٩٤٦ عضوا في محكمة الاستئناف الشرعية وبقي في هذا المنصب الى نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين .

وبعد وقوع النكبة الفلسطينية المروعة (١٩٤٨) قصد سماحته باكستان وافغانستان بتكليف من « الهيئة العربية العليا » على رأس وفد فلسطيني للدعاية للقضية الفلسطينية .

وفي اعقاب عام ١٩٤٩ عاد سماحته الى بيت المقدس وانتخب عضوا في « لجنة توحيد القوانين » وفي عام ١٩٥٠ عين قاضيا للقضاة (في الوزارة التي ألفها السيد سعيد المفتي) وبعد ان استقالت هذه الوزارة شكل السيد سمير الرفاعي وزارة فعين الشيخ غوشه قاضيا للقضاة ووزيرا للعدلية ، ثم استقالت هذه الوزارة فعين سماحته في آب ١٩٥١ رئيسا للهيئة العلمية الاسلامية براتب ورتبة وزير ، وبقي في هذا المنصب الى ان ألف السيد سمير الرفاعي وزارة فعين سماحته فيها قاضيا للقضاة ، وبعد ان استقالت هذه الوزارة عين سماحته رئيسا للهيئة العلمية الى اوائل عام ١٩٦٤ حيث عين قاضيا للقضاة براتب ورتبة وزير .

ومنذ عام ١٩٥٥ وسماحته يلقي حديثا دينيا اسبوعيا قبل صلاة الجمعة في المسجد الاقصى المبارك ويذاع هذا الحديث الاسبوعي من الاذاعة الاردنية في عمان والقدس . ولهذه الاحاديث اثرها البعيد في المجتمعات الاسلامية اذ تعالج مختلف النواحي الخلقية والاجتماعية والشؤون الدينية والدنيوية . وتلقى سماحته عشرات الرسائل من مختلف الاقطار العربية والاسلامية كالسودان وليبيا والعراق والكويت وسورية والسعودية والجمهورية العربية المتحدة وتركيا اعجابا بهذه الاحاديث ، ويطلبون من سماحته طبعها لتكون مرجعا من المراجع الهامة التي يلوذ بها العلماء والخطباء والمدرسون .

ونظرا للشهرة التي يتمتع بها في العالمين العربي والاسلامي تلقى سماحته طائفة من الدعوات فلبى بعضها وزار الاقطار التالية :

١ - الولايات المتحدة : قصدها سماحته عام ١٩٥٣ للاشتراك في مؤتمر الثقافة الاسلامية وعلاقتها بالعالم المعاصر ، ذلك المؤتمر الذي عقد في جامعة برنستون بدعوة منها ، وقد حضره ستون عالما نصفهم من مختلف الاقطار الاسلامية والنصف الآخر من اساتذة الجامعات الذين لهم عناية خاصة بالدراسات الاسلامية .

وخلال هذه الرحلة زار سماحته عددا من المراكز الاسلامية والجامعات الاميركية في الولايات المتحدة ، وألقى فيها عدة محاضرات باللغة الانكليزية كانت تدور حول القضية الفلسطينية والحريات في الاسلام .

٢ - المانيا الغربية : زارها سماحته عام ١٩٦٢ بدعوة من الجمهورية الالمانية للاطلاع على النهضة في المجالين الثقافي والصناعي.

٣ - الجزائر : زارها سماحته عام ١٩٦٢ على رأس وفد اردني للاشتراك في حفلة استقلال الجزائر .

٤ - العراق : زاره سماحته عام ١٩٦٢ على رأس وفد اردني للاشتراك في عيد بغداد الالفي وفيلسوفها الكندي .

٥ - سورية والعراق والسعودية والخليج العربي : زار سماحته هذه الاقطار العربية خلال عامي ١٩٦٤ و ١٩٦٥ لجمع التبرعات لاعمار المسجد الاقصى المبارك والصخرة المشرفة .

٦ - الجمهورية العربية المتحدة : زار سماحته القاهرة مرات عدة لحضور مؤتمرات البحوث الاسلامية ، وقد عقد الاول عام ١٩٦٤ والثاني عام ١٩٦٥ والثالث عام ١٩٦٦ بدعوة من فضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر .

٧ - المغرب : زار سماحته هذا القطر العربي بدعوة من عاهله الحسن الثاني للاشتراك في القاء دروس دينية في جامع مولاي الحسن الاول بالرباط . وتقديرا من العاهل المغربي للاحاديث التي ألقاها سماحته زين صدره بوسام الكفاءة الفكرية الذهب من الدرجة الممتازة.

من آثاره القلمية : صنف سماحته طائفة من الكتب والرسائل الطريفة في مادتها وابحاثها وقد عرفنا منها :

أ - الاجتهاد والتقليد : الاطروحة التي قدمها سماحته لمدرسة القضاء الشرعي ونال بها شهادة التخصص في الشريعة الاسلامية .

ب - فلسفة الحريات في الاسلام : الرسالة التي قدمها سماحته

عام ١٩٥٣ الى مؤتمر الثقافة الاسلامية وعلاقتها بالعالم المعاصر ، وهو المؤتمر المنعقد في جامعة برنستون بالولايات المتحدة .

ج ـ حديث الجامعة : عدة اجزاء تشتمل على الاحاديث الدينية في التفسير ، التي القاها سماحته في المسجد الاقصى المبارك .

ولقد نميز الشيخ غوشه بارتجال خطبـه ومحاضراته ، وتأثـر بفلسفته وآرائه الفكرية بالمصلح الشهير الشيخ محمد عبده وبالسيد رشيد رضا . وخلال دراسته في الازهر وفي مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة تأثر باساتذته وفي مقدمتهم الشيخ محمد بخيت المطيعـي والشيخ محمد حسنين والشيخ عيسى منون والشيخ عبد الوهاب خلاف والدكتور عبد الرزاق السنهوري وغيرهم من اساتذة وشيوخ الازهـر ومدرسة القضاء الشرعي الذين عرف فيهم التحرر والانطلاق .

نموذج من نثره : « الحرية هي احد الفصول الرئيسية الهامـة التي تتحقق بها سلامة الافراد والجماعات ، بل الشعوب والحكومات . وعليها تعتمد الامم ذات الرسالة الانسانية في اداء رسالتها وهي حق طبيعي للانسان ولازمة له لزوم الروح للجسد والضوء للعين ، بل هي فطرة الله التي فطر الناس عليها .

والامة انما تكون مثالية اذا وفرت لافرادهـا وجماعاتها السعادة المادية والمعنوية واطلقت لهم حرياتهم الشخصية ، وكفـل دسـتورها ونظمها المحافظة على هذه الحريات وصيانتها من كل اعتداء وعبث .

والحرية اليوم هي الشغل الشاغل للعالم اجمع ، والبحث عنها في أي معنى من معانيها يتطلب نشر تلك الصحائف الدامية التي سجلها تاريخ الانسان في الصراع بين الحق والطغيان .

ولقد اشترك في هذا الصراع أبطال الانسانية وقادة الفكر منـذ ان وجد الانسان ووجد الفكر . وبالمقدار الذي ارتقت اليـه مداركه وتحررت أفكاره كان الصراع يقوى ويضعف ويمتد ويتقلص .

ولقد كان دور الاسلام في هذه المعارك دورا فاصلا فاضاء بمبادئه مشعل الحرية ووطد بتعاليمه اركانها ، وايد سلطانها ، ونشر بعدالتـه ألويتها وبعثها في القلوب بعثا لا يعتريه التراجع والفتور ، ولا تأخذه قوى الطغيان مهما عظمت وتضافرت .

والاسلام ـ وهو التشريع العام الخالد الصالح لكل زمان ومكان ، والدستور الجامع المنظم لشؤون الامة الدينية والدنيويـة ، المحـقق لمصالح الفرد والجماعة والامة على السواء ـ قد عالج المواضيع الحيوية الهامة وفي طليعتها موضوع الحريات معالجة حكيمة ناجعة . فقـرر الحرية للافراد والجماعات ضمن نطاق الحكمة والمصلحة العامة وشرع من النظم والاحكام ما يكفل تحقيق ذلك ويصونه ، بازا جميع النظـم الدستورية الاخرى التي عرفها الانسان .

والاسلام بمبادئه وتعاليمه خير كفيل لايجاد مجتمع تسوده المحبة والسلام ويخيم عليهم الامن والاطمئنان . وما أجدر العالم ـ وهو يقاسي ما يقاسيه بسبب مختلف المبادىء والافكار والنزعات التي قـد تودي بالحضارة والمدنية وتقضي على المثل العليا التي تحقق خير الانسانية ـ أن يأخذ بمبادىء الاسلام الرشيدة وتعاليمـه السامية بروح المحبـة والتسامح ، ففي ذلك سلامه واطمئنانه وسعادة البشرية وهناءتها » .

٢ ـ ضيـاء الديـن الخطيب

كثيرا ما تهزني النشوة الروحية عندما اقرأ سورة مـن آي الذكر الحكيم او اعثر على حديث شريف يصح أخذه دستورا لدنيا نعيشها او لآخرة نرجو حسن ختامها .

ومن الاحاديث التي تستهويني وتبعث النشوة في نفسي الحديث الشريف القائل : « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخـرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه .. ومن هذه ! » وهذا الحديث الرائع ينطبق على الاستاذ ضياء الدين الخطيب نصا وروحا .

ولد الخطيب في بيت المقدس عام ١٩٠٥ واكمل دراسته الابتدائية في المأمونية ودراسته الثانوية في كلية الفريـر والكلية الانكليزيـة (كلية الشباب) في عهد استاذ العربية وآدابها المعلم نخلـة زريق . ونظرا لذكائه اختارته ادارة المعارف العامة بالقدس بعثة على حسابها للجامعة الاميركية في بيروت وتخرج في عـام ١٩٢٥ يحمل بكلوريوس في التاريخ وعين معلما في الكلية العربية بالقدس ونشر فـي مجلتها مقالات تاريخية .

وفي عام ١٩٢٧ اوفدته ادارة المعارف العامة بالقدس الى جامعة لندن للتخصص في التاريخ او قل فيموضوع The Eastern Question وفي عام ١٩٣٠ عاد الى بيت المقدس يحمل شهادة M.A في التاريخ وشرع يعلم في الكلية العربية . وفي عام ١٩٣٥ عـين مديرا لثانوية الخليل وفي عام ١٩٣٦ نقل مساعدا لمفتش المحاكم الشرعية وعين خطيبا للمسجد الاقصى .

وبعد وقوع النكبة الفلسطينية نزح الـى سورية وعين استاذا للاجتماعيات في ثانوية حلب ، وفي عام ١٩٦١ استقر في دمشق وعين مساعدا لمدير التربية والتعليم في وكالة غوث اللاجئين بسورية .

نموذج من نثره : « ما فتىء الناس منذ العصور الخوالي يتطلعون الى الحرية ويصبون الى التمتع بها ، وما فتئت اقلام مفكري الامـم تناضل عن الحرية وتدفع عنها كل عنت وضيم ، ومـا برحـت القلوب تعشقها والنفوس تتوق اليها .

ولكم قاتل الناس من أجلها ، ولكـم نشبت الحـروب واهرقت الدماء في سبيلها ! وهذه الامنية النفيسة ايدها الله تعالى في محكم الآيات .

هذه الحرية التي قدسها الاسلام وجعل لها مكانة عليـة وقال فيها (عمر) رضي الله عنه موجها خطابه لوالي مصر : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟ » . هذه الحرية التي عاش فـي ظلها العربي احقابا طويلة هي ما كانت عليه في عصورها الغابرة مقدسة غالية تتعشقها القلوب الطاهرة وتتطوع من اجل الجهاد فـي سبيلها النفوس الزكية الابية .

لا جدال في ان الناس متفقون على مكانة الحرية الرفيعة ، ويود كل امرىء من صميم قلبه ان يكون حرا فـي تصرفاته ... حرا فـي حركاته وسكناته ... لا يطيق ان يرى نفرا آخر يعمل علـى تقييدها والحد من منطلقها .

قيل لرجل لم يخرج في حياته من بلده : « ان حاكم المدينة قد أمر بمنعك من تجاوز تخومها ! » فشق عليه هذا الحظر وأصبح يشعر بالقيد الثقيل الذي طوق به ، وصار يشبه نفسه بالعصفور الـذي احتجز في القفص وحرم من التمتع بالحرية المطلقة ، مع ان نفسه لـم تحدثه في يوم من الايام ان يتجاوز تلك التخوم التي كانت مباحة له .

بيد ان طائفة من الناس يسيئون استعمالها ، وبذلك يكونون قـد اساءوا فهمها ، وهنا نرى لزاما علينا ان نعين الحد لهـذه الطائفة ، اذ ان الحرية المطلقة لا يتمتع بها الا الوحوش مـن الحيوانات التـي تعيش في البراري والقفار ، فتستبيح ما شاءت ، وتأتي بكل ما توحيه اليها غريزتها .

اما الانسان فانه يعيش في نظام اجتماعي يحتم عليـه ان يتنازل او يتخلى عن شطر كبير من مطلق حريته ، وبدون ذلك لا يكون مدنيا. فحرية المرء في النظام الاجتماعي مقيدة بالامتناع عـن الحاق الضرر بالغير ، وما دام الانسان المتمدين في حاجة الـى الاندماج في هـذا النظام ليتاح له الحصول على غايات متنوعة ، اصبح من الواجب عليه ان يراعي مصلحة الغير من مواطنيه الذين يعيش بينهـم ، ويتقيد بالعادات والتقاليد التي من شأنها الحفاظ على مصلحة الغير ، هـذه المصلحة التي نجمت عن الضرورة واكتسبت ، مـع الزمن ، الصبغة القانونية » .

٣ ـ سعيد زين الدين

منذ عرفت هذا الاديب النابه وشعاره الذي يتغنى به : « حب الوطن عاطفة تشرف الانسان ! » .

ولد « سعيد » في غزة هاشم بفلسطين عام ١٨٩٤ وفقد اباه في سن مبكرة ، فتعهدته امه بالتربية والتوجيه وبعثت به الى دمشق لاستكمال دراستيه الابتدائية والثانوية . وبعد ان انهى تعليمه الثانوي عين معلما في السويداء ب « جبل العرب » وأمضى فيها مدة ثلاث سنوات ثم انتقل الى بيت المقدس مديرا لمدرسة « المأمونية » والى يافا مديرا للمدرسة الرشدية . وبعد ان عمل في حقل التعليم عدة سنوات اقبل على التجارة يزاولها في يافا وانتسب لمعهد الحقوق الفلسطيني بالقدس ونال الشهادة عام ١٩٢٧ ومارس المحاماة ودافع عن حق الضعيف والمظلوم والفقير ، وتطوع ، في كثير من الثورات الفلسطينية للدفاع عن المتهمين العرب ، وانتخب نقيبا للمحامين في يافا ورئيسا لجمعية المقاصد الاسلامية وشجع على انشاء مستشفى كبير يحمل اسمها .

وبعد حلول النكبة الفلسطينية الاولى (١٩٤٨) نزح الى غزة وواصل عمله فيها وانتخب نقيبا للمحامين ، وخلال عمله في المجال العام تميز بالدفاع عن امته ، والاعتزاز بقوميته ، وكان خطيبا سياسيا بارعا ومؤمنا بان الاسلام الصحيح هو عز العرب وعمودهم ، وان السير على نهج النبي العربي الكريم والتأسي بخطى الخلفاء الراشدين هدي للعربوغنم للمسلمين . وفي الثالث من شهر آب ١٩٥٩ توفي بغزة ودفن في المقبرة القريبة من دار المجلس البلدي .

نموذج من شعره : قرض « سعيد » الشعر في سن مبكرة وظل ينظمه وينشده في المجتمعات العامة والمؤتمرات الفلسطينية السياسية، ودونك ابياتا يخاطب بها فلسطين موطنه الاول :

وطني الحبيب وحق من سواكا ... لم يهو قلبي في الحياة سواكا
ما همت يوما في سواك وكيف ذا ... والقلب لم يشغف بغير هواكا
أرخصت روحي في هواك ومهجتي ... من كل سوء قد جعلت فداكا
الله يأمرني بحبك والهوى ... لا عاش يوما كل من عاداكا
لك في شغاف القلب أسمى منزل ... ومكانة عظمى وحق علاكا
فرياضك الغناء تحكي جنة الـ ... فردوس حسنا والنعيم رباكا
وكذاك ماؤك كالفرات حلاوة ... ولكم شفى بزلاله مرضاكا

وظل سعيد زين الدين يهتف باسم فلسطين ويشيد بذكراها ويتغنى بثراها الطيب الطهور ويقول :

تربيت طفلا من ترابك في الحشا ... وانميت جسمي من دقيقة مولدي
سماء صفت حسنا زهت بشموسها ... وارض كلون التبر مثل الزبرجد

٤ ـ يوسف النجار

للسلف الصالح ، خلفاء وشعراء ومؤرخين ، فرائد غوال من الحكم والامثال التي يصح أخذها « منائر » يسار على هديها . ومن تلك الفرائد البليغة قول سعيد بن جبير :

« ما رأيت للانسان لباسا أشرف من العقل ، ان انكسر صححه ، وان وقع اقامه ، وان ذل أعزه ، وان سقط في هوة جذبه منها واستنقذه ، وان افتقر أغناه . وأول شيء يحتاج اليه البليغ العلم المتزج بالعقل ! » .

ونصيب يوسف النجار من هذه الحكمة « العلم المتزج بالعقل !»

ولد النجار في بيت المقدس سنة ١٩٢١ وكانت مرحلة دراسته الابتدائية والثانوية في كلية روضة المعارف الوطنية ونال شهادتها عام ١٩٣٦ ومرحلة دراسته الجامعية في كلية اصول الدين (فلسفة ودراسات اسلامية) وتخصص في كلية اللغة العربية في التربية وعلم النفس ونال شهادتها عام ١٩٤٢ ، وعكف على دراسة الخط العربي وألم بقواعده واصوله واحرز دبلوم مدرسة تحسين الخطوط الملكية في القاهرة عام ١٩٤٢ وبلغ في الخط العربي ما بلغه ابن مقلة (٨٦٦ ـ ٩٤٠) الاديب الذي اشتهر بحسن الخط حتى عد احد مبتدعيه !

وعاد النجار من القاهرة الى مسقط رأسه وعين في دائرة الاوقاف مساعد مدير عام وفي المجلس الاسلامي الاعلى مساعد سكرتير المجلس ثم سكرتيرا اصيلا بعد زوال الانتداب البريطاني ، ثم وكيلا لمدير عام الاوقاف في فترات مختلفة . وفي عام ١٩٥٠ عين سكرتيرا للحاكم العسكري في القدس حتى تشكيل الادارة المدنية فيها بالاضافة الى عمله في الاوقاف .

وما عتمت هذه النفس الكريمة ان عزفت عن الوظائف فطلقتها ..وانطلقت تبحث عن « السلوى » في التدريس فعين صاحبها استاذا للعربية وادابها في الكلية الاهلية برام الله عام ١٩٥١ و ١٩٥٢ فاستاذا للعربية وآدابها ثم للفلسفة والمنطق والاجتماع في الكلية الابراهيمية ببيت المقدس .

ولم يقف نشاط يوسف عند حد التدريس بل تجاوزه الى تخوم الصحافة فتولى رئاسة تحرير « فلسطين » منذ استأنفت الصدور في القدس بعد انتهاء الانتداب ودرج على كتابة الافتتاحيات والمعالجات الاجتماعية والمحلية ، وظل دؤوبا على عمله هذا حتى عاد صاحبها الاستاذ رجا عيسى العيسى وتسلم رئاسة تحريرها .

وحرر النجار في جريدة « البعث » يومية واسبوعية وظل يعمل في حقلها من تاريخ صدورها الى تاريخ احتجابها واختص في التعليقات السياسية وفي باب اجتماعي يومي بعنوان « منبر الرأي الحر » .

وبعد ان صدرت جريدة « الجهاد » يومية في بيت المقدس ظل يوسف محررها المسؤول لثلاث سنوات واحد كتابها البارزين حتى عام ١٩٦٥ وتولى فيها كتابة الافتتاحيات والتعليقات السياسية واليوميات وزاوية ثابتة بعنوان « ومضات » .

وأسهم يوسف في تحرير جريدة « المساء » المقدسية منذ صدرت عن دار « الجهاد » الى يوم اغلاقها ونشر فيها قصصا قصيرة بعنوان « من صور الحياة » . والذين قرأوا يوسف في مقالاته ومعالجاته و « ومضاته » قرأوا فيه كاتبا سياسيا واجتماعيا وشاعرا مقلا . واتيح للذين سمعوه على المنبر ان يكتشفوا فيه خطيبا موهوبا يرتجل الخطبة كأنه يقرأها في كتاب !

وتقديرا لمواهب النجار وآرائه انتخب عضوا في مجلس امانة القدس ونائب رئيس جمعية تنظيم وحماية الاسرة الاردنية ، وقد مثلها في المؤتمر العالمي المنعقد في كوبنهاجن عام ١٩٦٦ .

من آثاره القلمية : (١) المنطق قديما وحديثا . (٢) مبادىء في علم الاجتماع . (٣) مباحث في الفلسفة . وهي كتب للطلاب .

(٤) دراسات في الحكر وتقديره .

(٥) اسرائيليات : رسالة اعدها بعد تخرجه من الازهر في أربعة مجلدات للحصول على درجة استاذ ، لكن هذه الرسالة القيمة كانت من نصيب العلج الاسرائيلي الذي استباح كل غال ونفيس في الاحياء العربية الفلسطينية ، بعد ان سهل له المستعمرون وقوع النكبة .

(٦) دراسات النصوص : مخطوطة تناول فيها الطريقةالمثلى لاختيار النصوص وتدريسها .

(٧) اساليبنا في التعبير من خلال قواعد اللغة وبلاغتها .

نموذج من شعره : للنجار شعر كثير من شعر الاخوانيات والباسطات والمناسبات . ومن هذا الطراز ابيات هنأ بها صديقه الاستاذ موسى علي الغول بقرانه وهي :

سال فيض الحنان من اوتاره ... حين ناجى المنى على قيثاره
فتهادى الى القلوب صداه ... صافيا كالنسيم في أسحاره
عبقريا كأنه نغم الفجر ... شدا بالحياة في ابكاره
يالها نشوة سرت في حنايا ... الروض مسرى الربيع في آزهاره

وادي الطواحين

يقع وادي الطواحين في غرب مدينة « صفد » ويبدأ من نبع قرية « ميرون » ، ويسير بمحاذاة سلسلة جبال الجرمق وترفده في طريقه روافد كثيرة من الينابيع حتى ينتهي الى بحيرة طبريه .

وادي الطواحين كيفالروض والزهر والظل والدوح والجنات والثمـــر
هل هن فيك كأيام لنـا سلفـت بيض يسـر بهن القلب والبصـــر
وهـل غديـرك ماض في تدفقـه كأنـه مـن جنـان الخلد ينحـدر
صاف تغني لـه الـورقاء اغنيـة يكـاد يطرب من ترجيعها الحجـر
ام قد تعكر مـن وجد ومن حـزن علـى فـراق احبـاء لـه غبـروا
خريـره يشتكـي للـورق غمتـه وتشتكي هي ممـا انزل القـــدر
وادي الطواحين كم فيالسفح مننزه كانت لنا فيك بالابكـار تبتـــدر
نأوي الى ظل دوحات قد اشتبكـت اغصانها وتبدى حسنها النضـــر
والارض مشرقـة حاكـت خمائلهـا غلائلا تاه في توشيحهــا النظـــر
والطير في الايـك بالشطين لاغيـة بكـل لحن له في النفس مدكـــر
وللميـاه اصطخـاب في تدافعهـــا وللرحى اذ تـدوي الوعظ والعبــر
ونحن في نشوة من طيب مجلسنـا ومـن نسيم عليـل جوه عطـــر
فما نزال من الاصباح فـي مـرح الى المساء وحتـى يطلـع القمـــر
ايـام صفـو تقضت في مرابعنـــا والشمـل مجتمع والعيش مزدهـر
حتى اذا الدهر ابدى ناجذيه لنــا حالت بنا الحال واستشرت بنا الغير
وادي الطواحين هل عود اليك وهل يصفو الزمان ويجلى عنك من غدروا
وادي الطواحين لا جادتـك غاديـة ما دام فيـك عـدو غاصب خطـر
وجاد اهلـك غيث اينمـا نزلـوا مـن البلاد وشاقتهم لك الذكـــر

حلب

محي الدين الحاج عيسى

فانتشى طيـره وقـام يغنـــي هاتفـا بالجمـال فـي آذاره
باعثـا مـن غنائـه الحلـو لحنـا ضحكـات القيـان بعض نثـاره
لهلالـين أشرقـا فـي عـلا الكـون فتاهـا زهـوا علـى أقمـاره
أين هـذه النجـوم مـن مشرق يبـدو فتـروي الارواح مـن أنـواره
كلـف بالعـلاء يأنف ان يلقـي فـوق السهـا عصـا تسـياره
أيـن هـذي النجـوم من نجمة المجـد التـي اختارها اليفـة داره
ايه «موسى» الحبيب مني تقبـل خاطـرا فـاض طائعـا غيـر كاره
يا سـليل العلا اليـك تحايـا باسمـات كالصبح فـي أسفـاره
حامـلات اليـك شـدو التهانـي ناشرات عليـك أصفـى نضـاره
كلـل اللـه عرسـك باليمـن وأدلـى العلا جني ثمـاره

نموذج من نثره : « سالني صديق : « هل حضرت مؤتمـر امس الاول ؟ » .

قلت : جانبا منـه فقط !

قال : وهل استمعت الى كلمة (فلان) ؟

قلت : كـلا !

قال : لقد فاتك الشيء الكثير ، ليتك سمعتها ، فقد أتى فيها على وصف شامل للاوضاع ، فصور حقيقة الداء ، ووصف الدواء !

قلت : هون عليك ! ما فاتني الا كلام .. ما أنا بالآسف قط على انه فاتنـي .. فأنا ، وأنت ، وهم ، وهن .. جميعا ، نعلم ما قيل من قبل ان يقال ، وان لم نؤت البراعة في تنميق الكلم وتزويقه ، واخراج الحروف من مخارجها ، ليكون لها أثرها الموسيقي في الاذن ، وعمـق تاثيرها ـ العاطفي ـ في النفس !

نحن لا نعدم ، ولن نعدم « قوالين » والحمد لله .. فهم كثر .. ولو ان جامعا عني بتصنيف كل قول قيل .. منذ حلت بنا النكبـة النكراء ، لخرج من كل ذلك بمجلدات تفوق في عددها وضخامتها مـا ألقى « المغول » في نهر دجلة .. وترجح ما وصلنا من ادب العرب منذ جاهليتهـم !

نحن يا صاحبي بحاجة الى شيء واحد !

ذلك هو .. ان نكم افواهنا الى الابد ، وان نصم آذاننا .. الا عن سماع قائد الكتيبة التي تقتحم خط النار ، غسلا للثار ! » .

عمان ـ الاردن

البدوي الملثم

مدرس من فرنسا

بقلم مصطفى الخش

في منتصف العقد الثاني ، ارستقراطي حتى اطارف انامله ، ذو شعر ذهبي متموج ، وبشرة من رحيق الشهد ، معتدل القامة أميل الى الطول ، موفور الصحة ، متمل العافية ، عيناه عسليتان متسعتان وفمه حسن التكوين ، صوته موسيقي النغمة ، وابتسامته عذبة الى درجة عظيمة ، يمشي على الارض مرحا فيشيع الحبور في النفس بشبابه الريان وبهجته الغامرة .

جاء الينا ، قبل ثلاثين عاما ، مدرسا للرياضيات في المدرسة الثانوية العلمانية بطرطوس ، فلا والله ما عرفت أرق منه ولا الطف ، فالحيوية دفاقة في كيانه ، والبشر يضفر أكاليل الغار فوق جبينه ، والمحبة — سبيل الخير — تعمر قلبه .

كان يبعث نسمات من الهواء العليل الطلق ، اما داخل الصف ، فيهب التلاميذ وقوفا ، منشرحي الصدر ، يؤدون له مراسم الاحترام ، شاخصة اليه ابصارهم ، وساعية اليه قلوبهم ، فلا يجلس الى نضده بوجه عبوس قمطرير بل يظل واقفا طوال فترة الدرس ، ينقل خطوه كالحجل او كراقص في حفلة ساهرة ، مشرق الوجه ، انيق الملبس ... وبدون أية مقدمة ، وفي سبيل أن لا تضيع ثانية واحدة ، فانه يمسك قطعة الحكك ، بانامل تحسبها يد طفل ، ويبدأ في الشرح : عملية حسابية فعملية حسابية اخرى ، وهكذا دواليك .

وخلال ذلك لا يفتأ يتأمل الاوجه ، فيما اذا كان الانتباه تاما . ولا ينتقل من مرحلة في الدرس الى مرحلة اخرى ، قبل ان يسأل التلاميذ عما اذا كانوا قد استوعبوها كلها . ولا يكتفي بجوابهم بل يختار اضعفهم في هذه المادة فيدعوه ان يتقدم نحو اللوح ، ويناوله قطعة الحكك في سبيل ان يدلل على صحة تفهمه للعملية حتى اذا لم يقم الدليل ، اجلسه في مقعده واعاد شرحها من جديد . فان لم يعرف اعاد الشرح مرة ثانية وثالثة . بدون كلل . وفي احدى المرات استمر التلميذ في غبائه ، فعيل صبر المدرس ، وقذفه بعبارة استفهامية :

— أوانت حمار ؟

ومثل هذه العبارة ، ما تعود ان يتلفظ بها أبدا ، فما على لسانه الا الكلام الحلو .

كان من فرط حبه للتلاميذ ، يود أن ينقل معلوماته الىاذهانهم جميعا، لا يستثني منهم احدا . وكانوا يتجاوبون معه بالمحبة، فيستشعرون غيرته عليهم وحرصه على ان يفيدوا منه ، فكان أحب الدروس اليهم هي مادته ، ولو انها اصعب المواد ، فلا يكدون في تحضير أية وظيفة قبل وظيفة الرياضيات .

كانت قاعدته ان التعليم ليس مجرد تلقين معلومات بل لا بد للتلاميذ ان يتعلموا من تصرفات استاذهم اكثر مما يتعلمون من اقواله . ولذلك فلم يعرف التهاون لا مع نفسه ولا مع تلاميذه .

بدأ تعليمه لنا بشرح الارقام الحسابية التي تم التعارف عليها وعن سبب اعتبار الرقم خمسة مقياسا للعد فيقال : ٥ — ١٠ — ١٥ ولا يحسب ٧ — ١٤ — ٢١ . واوكل الينا فرضا في شأن العد لنقوم بتحبيره — تحت اشرافه — وخرج يتطلع الينا من النافذة والباب اللذين ينفذان الى البهو .

وكنت الاول في صفي بمادة الرياضيات . وقد كبر علي ان البي رغبة المدرس ، فأقوم بكتابة هذا الفرض الذي لا يليق بتلاميذ صف الكفاءة فرحت اليه اسائله :

— اية فائدة لنا من هذا الفرض ؟

رفت على شفتيه ابتسامة رقيقة ولكنه تصنع التعاظم فقطب حاجبيه قبل ان يقول لي ببساطة ، كالماء ،

— لا شأن لك بهذا السؤال ... أنا أدرى منك بفائدة الفرض واردف بنبرة جازمة : عد الى مكانك .

ولما كان الجواب سلبيا ، فقد حرنت عن الكتابة ، فلاحظ ذلك مني — وكنت ادور بعيني فيما حولي — فأشار الي باصبعه يدعوني اليه :

— لماذا لا تكتب ؟

— اني لا اكتب مثل هذا الفرض.

— اذن فانت معاقب بساعتي حبس .

ما نبت ورجعت الى مقعدي اعاود سكوني فلا أحفل بقصاصه وقد عز عليه فلم يطاوعه قلبه الا اكتب فذهب يشكوني الى المدير . فلما مثلت امامه قذفني بعبارة اشبه بقنبلة صاروخية :

— أوتعرف اكثر من الذين يضعون برنامج الشهادة الثانوية ؟

وقفت امامه ، زريا ، كحذاء قديم ، وبمجرد ان نفيت هذه المعرفة فقد فرض علي المدير قصاصا آخر بساعتي حبس اقضيهما في عطلة يوم الاحد الاسبوعية .

وكما في المرة السابقة فقد لذت بالصمت وعدت الى مقعدي غير هياب بالقصاصين معا . غلبني الانفعال فارتسمت امارات الضراوة



على وجهي ... تفرسني المدرس فشق عليه أمري وكان قد تقضى زمن غير يسير على الوقت المحدد لكتابة الفرض فناداني الى البهو .. وعلى مدخل الباب مد يده فاجفلت محاذرا ان كان يود ضربي ولكنه استمالني اليه بصوته الفني النغمة، ذي الاصالة الموسيقية ، التي تجعله مستحبا في الاذن :

– تعال نتنزه .

مشيت معه جنبا الى جنب . وبلهجة الصديق او الاب الحنون فقد نصحني ان لا احجم عن كتابة الفرض والا جعلته ان لا يهتم بي فيهمل شأني فيكون حاصل ذلك رسوبي في فحص الشهادة الثانوية لاني عندئذ أكون متأخرا في مادة الرياضيات بدل أني فيها متقدم .

وما بالقصاص وانما بفعل هذه الكلمات الحلوة التي اورقت في نفسي ازنبقا وورداً وريحانا فقد عدت هذه المرة الى مقعدي لاعجل في كتابة الفرض قبل ان تحين نهاية الوقت المحدد ... واذكر انه في اليوم التالي بدأ درسه في التنديد بي ، برقة وايناس ، معددا فائدة الفرض الذي كتبناه وانه في سبيل تفتح المحاكمة الذهنية في عقولنا . وهذه المحاكمة هي اسس النجاح في مادة الرياضيات .

☆

وبعد ان كان شعره الذهبي مرسلا الى ما وراء اذنيه، جاءنا ذات يوم مقصوصا الا من غرة في المقدمة . وتلك قصة يطلق عليها الحلاقون اسم « الفرشاة » لان الشعر يسوى بها من غير المشط . ويكتسح الفضول احد التلاميذ فيسأل عن سبب القص فينهره بخبث برىء :

– اخرج من القاعة

اعترض التلميذ على هذا التدبير فاصطنع الكدر ، دلالا ، مثلما يتصنع الطفل الابتعاد عن ثدي امه ولكنه اشار عليه – والابتسامة تسبح في عينيه – ان يخرج من الباب ، امتثالا لامره ، ثم يعود الى مقعده فما يطيق ان يراه محروما من فائدة الشرح .

وعقب المدرس على فضول التلميذ فاوضح ان قص شعره كان بسبب نصيحة الطبيب . فارتسمت على وجوهنا علامات التعجب فصحته جيدة ونشاطه متوقد ولا دلالة فيه لاي مرض كان .

مضت الايام سريعة متلاحقة . وبعد ان تقضى نصف العام الدراسي ، اذا بالمدير يفجؤنا ذات صباح :

– اذا جاءت الساعة العاشرة والنصف فسآتي اليكم لاختار لكم فرض مادة الرياضيات وكانت العادة ان تكتبه في المدرسة تحت اشراف المدرس خلال ساعة ونصف قبل ان تحين فرصة الغداء لكيلا يعتمد بعض التلاميذ الى نقل الحل عن البعض الاخر .

وزاد المدير فكشف لنا عن ان استاذنا بالمستشفى في بيروت وقد انتابته الحمى الدماغية وانه بعد العدة في سبيل ان يغادر البلاد ، نهائيا ، فما واتاه المناخ، وان معاملته لن تنتهي قبل يومين أو ثلاثة لانه انما يدرس وهو يقوم باداء خدمة الجندية الالزامية المفروضة عليه نحو وطنه .

كان بريد بيروت اليومي يصل طرطوس في العاشرة . فلما وافت الساعة العاشرة والنصف جاءنا المدير مبتسما ابتسامة أسفية وهو يحمل مغلفا بداخله اسئلة الفرض بخط المدرس فأملاها علينا واخذنا في الاجابة داعين ان لا يصيب استاذنا مكروه وان لا يفارقنا قط على اننا اكبرنا في الوقت نفسه مثاليته في القيام بالواجب . واي دليل ابلغ من ان يرسل لنا الاسئلة وهو على فراش المرض ؟! ...

ومرة اخرى ، في اليوم الثاني ، وفي الموعد المحدد لكتابة الفروض ، فوجيء التلاميذ برنين الجرس ، يدعوهم الى اجتماع عام ، في بهو المدرسة . هجس هاجس الخوف في صدورهم فوقفوا امام صفوفهم واشرأبت اعناقهم ، في صمت ، نحو المدير الضخم الجثة ، والواقف في الصدر وحوله هيئة التدريس . راعهم ان عينيه تشرقان بالدمع وهو ينعي اليهم وفاة مدرس الرياضيات « ايسورا » Hyssaurat في مستشفى بيروت ... أعلن الصمت دقيقة واحدة احتراما لذكراه ...

اكتسح التلاميذ شعور من الرهبة والاشفاق والقلق حيال طبيعة الموت الغامضة المقتحمة فطفح الحزن من القلوب فاحتقنت الوجوه بالدم واغتسلت بالدموع ... وكانت مناحة التلاميذ لفقد مدرسهم الحبيب .

☆

تركت هذه الذكرى الاليمة اثرا باقيا في قلبي ، كالندبة ، وكلما نكأ بي الجرح القديم ، اشتعل في صدري الم حارق فيتملكني اسى عميق يكاد يبكيني ... وتتماوج الافكار في خاطري فاطرح هذا السؤال على نفسي متحدثا – على طريقة من يتكلمون من بطونهم – :

أويخلص مدرسو بلادي لواجبهم، ويحبون تلاميذهم ؟ بل هل يكونون لهم مثلما كان هذا الغريب لتلاميذه؟! ومن يحب وطنه يتقن عمله !

مصياف – سورية مصطفى الخش

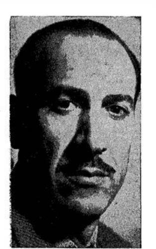
الحكاية

★

الحلم بـرد . اعطني جرعـة ... مـن السراب . علنـي اسكر
يابسة حروف وجهي ، وكانت ... بأغاريـد الشـذا تقطـر
اين؟ طريقي من هنا .. لا ارى ... نجيمـة بيضاء لـي تسفـر
اضعتـه المصباح والخاتم ... السحري.. يا علاء كم تخسر !
يا ليل خبرني ... انا من انا ... حتى تجيئني وبي تسخـر ؟
أمـر بي مر ربيـع فمـا ... تبتـه حتى لم يعـد يزهـر ؟
اقص قصتي علـى زوجتـي ... وطفلتي وابني.. الم يشعروا؟
تقـول زوجتي . وماذا تقول ... زوجتـي ؟ اظنهـا تكفـر
وطفلتي في صمتهـا تقفـر ... وكـان وجـه طفلتي يقمـر
ومثل نسر عالق فـي شـراك ... هكـذا طفلـي اذ ينظـر ...
الطائـر الكـان هـنا ينقـر ... الحب بقلبـي الطائر الاشقـر
الطائر الفناكـم مـن زمـان ... طار .. طار .. لم يعد يحضر
البيت مفتـوح الشبابيك ما ... يجدي اذا الهواء لا يخطـر ؟!
أبصر حالتي وحال العيـال ... والعيـال همـي الاكبـر
حلمت بالبيـت الذي يعمـر ... يضحك فيـه القلب والمحجـر
والان ما لي في دروب المنى ... احمل جرحي وانـا اعثـر ؟!
ان لفنـي الصبح باندائـه ... وضمني النجـم الذي يعبـر
اصبحـت احتمـي بايديهم ... علـى جبيني وهي تستمطر
حمامـة بيضـاء ايديهـم ... على جبيني وهي تستمطـر
حمامـة بيضاء رفـت علـى ... لحـن من القرآن يستقطـر !
ما ابخل العمر ! اقص الجناح ... والفضاء واسـع نـيـر ؟
أوان ان انشـد اغنيتـي ... اوان ان اطير هل اقبـر ؟
يا حب سليني .. يكاد الهوا ... يطفىء قنديلي لـو تشعـر !
الليـل والبيداء فـي غرفتي ... عليهما اشرعتـي انشـر
فكيف يا حب دروبي رمال .. ... كيف يا حب انـا ابحـر ؟

ما زال في قلبي لحون ، ومـا ... زلت اغنـي . لم اكن اضجر
ادق بـاب الله في خشعـة ... صوفية لعلـه يغفـر ...

حلب ... علي الزيبق



سعد صائب

اورخان ميسر .. اديبا وناقداً

بقلم سعد صائب

***

مع الموت

في محاورة « فيدون » « لافلاطون » يروي « فيدون » نفسه « لأشكرات » قصة موت سقراط قائلا : « في الواقع ان شعوري كان غريبا حقا وانا الى جانبه . وفي الحقيقة لم تتملكني الشفقة عندما كنت اشاهد موت رجل كنت اتعلق به ، ذلك لانه بدا امام عيني ـ يا أشكرات ـ رجلا سعيدا .. سعيدا في تصرفاته وفي حديثه . وكم كان في لحظاته الاخيرة هادئا نبيلا الى درجة انه وهو الذاهب الى مقر « هاديس » أوحى الي باحساس بأنه لا يذهب الى هناك دون عون من الآلهة ، بل انه عند وصوله الى هناك لا بد واجد سعادة لم يعرفها انسان ابدا . تلك اذن العلة في انه لم يتملكني البتة اي احساس بالشفقة كما قد يبدو طبيعيا عند من يحضر وفاة . ولكن لم يكن ايضا شعورا بالغبطة التي اعتدناها في ساعات تفلسفنا ، وان كانت هذه الساعات الاخيرة هي ايضا فلسفية . والحقيقة انه كان هناك شيء غريب يتملك مشاعري ، كان مزيجا عجيبا من السرور والالم في آن واحد ، الالم الذي كان ينتابني عندما كنت افكر في ان نهايته قد دنت ، وكان هذا شعورنا جميعا نحن الذين كنا حاضرين نضحك تارة ونبكي تارة اخرى » (١) .

اخال ان شعورا مماثلا قد انتابني وانا الى جانب « اورخان ميسر » في ساعاته الاخيرة (٢) ، **فلم تتملكني** الشفقة عليه وانا اشاهده يدنو من نهايته ، اذ كان يبدو لعيني ، كما بدا سقراط لفيدون رجلا سعيدا في تصرفاته وحديثه ، **كما كان هادئا نبيلا وكأنه موقن انه سيجد في** حياته الثانية سعادة لم يعرفها انسان ابدا . ولعل سعادته **تلك كانت ترين علي وانا استمع اليه يحدثني عن** قضايا الادب والنقد عندنا ، والمشاكل التي تعتور هذه القضايا ، والحلول التي يجب علينا انتهاجها للخروج منها .. لقد كان شعوري غريبا حقا امتزج فيه السرور بالالم ، **السرور مما اسمعه واطرب له ، والالم من اشفاقي من النهاية التي سينتهي صديقي اليها عاجلا.**

ولكم كنت اعجب لهذه الظاهرة التي توشك ان تثير في الشك في صمود الصديق ، ومغالاته في اظهار الصبر والتجلد اللذين لا يمكن ان يعانيهما انسان يدنو من نهايته .. **بيد ان شكي لا يبرح ان يزول حين استمع الى زوج** الصديق وهي تتحدث عن صموده العجيب حيال الداء الذي كان يفتك به فتقول : **كان يرفض ان يستسلم** للالم .. وكان يلحن آلامه متحاشيا ان يصرخ مهما بلغت قسوة الاوجاع ..

ولكم ساءلت نفسي : ترى اكان مبعث هذا الرفض النزوع الى الاستمتاع بالدقائق الاخيرة التي يهبها الموت للحياة فيهتبلها من يشرفون على الموت يعتور الفلاسفة والمفكرين فحسب ؟

ان ثمة من يؤكد ان الفيلسوف الحق الذي يزاول المعرفة والفضيلة الفلسفية القائمتين على الفكر ، ويكون عمله الدائم هو الاستعداد للموت ، **يصل الى حالة من الطهارة والنقاء** بحيث يتلقى الامر بالذهاب في يسر (٣) « .. **لذا فقد آمنت بأن الصديق** ـ وهو الذي زاول طوال حياته المعرفة والفضيلة الفلسفية بلغ في لحظاته **الاخيرة من الطهارة والنقاء** ما جعله يستقبل الموت لا استقبال المؤمن بحتميته فحسب بل استقبال المؤمن بأن **الحياة الحقيقية** هي الموت هو الفكرة التي في داخلنا على حد **تعبير الشاعر الغامبي** « بيترز » .. ولعل لحن الصديق الذي كان يتناهى الى زوجه حين ينتابه الالم من قسوة اوجاعه ليس سوى لحنه الاعلى لفنائه الذي كان يتغنى به حين زاول **المعرفة والفضيلة الفلسفية** ، وهو هنا يشبه البجعة التي تروي الاسطورة اليونانية : انها حين

(*) القيت في الحفلة التي اقيمت يوم ٣٠ ـ ٥ ـ ١٩٦٨ في المركز الثقافي العربي بحلب بمناسبة مرور ثلاثة اعوام على وفاة الاديب الناقد الشاعر « اورخان ميسر » .

(١) الاصول الافلاطونية ـ فيدون ـ الجزء الاول ـ ترجمة الدكتور نجيب بلدي ص ٢١ ـ ٢٢ ـ الطبعة الثانية . (٢) توفي مساء يوم الجمعة في ٧ ـ ٥ ـ ١٩٦٥ . (٣) المرجع نفسه ـ تعليق ص ١٦٠ .

تشعر بدنو اجلها فان ما كان لها من غناء من قبل يمسي حينئذ اكثر واعلى منه في اي وقت مضى لفرحتها بأنها على وشك الرحيل بجوار الاله الذي تخدمه ..

مــع الحيــاة :

ولد اورخان ميسر العربي الاصل في « اسطمبول » في ٧ ايار عام ١٩١٤ وظل فيها حتى عام ١٩٢٨ حيث انتقل مع أهله الى بلدته « حلب » التي نزح اليها اجداده من مكة المكرمة منذ ٨٥٠ عاما . وفي حلب تلقى دراسته الابتدائية ، وحين انهاها مضى الى « عاليــه » يدرس الثانوية في « الجامعة الوطنية » وقد تتلمذ على « مارون عبود » الذي تأثر به البدء ، ثم انتقل الـى « الجامعة الاميركية ببيروت » آملا ان يدرس الطب ، بيد انه هجره بعد زمن مؤثرا عليه دراسة الادب والفيزيـاء ، وبعد سنوات نال شهادة (ب.ع.) بكالوريوس علـوم فقدم لجامعة «شيكاغو» اطروحة تناول فيها دراسة « الانسان تحت تأثير غدده اللاقونية وسلوكه الفردي » نال على اثرها درجـة اكاديميـة (م.ع) ثم عاد ثانية الـى حلب ليشرف بعد وفاة ابيه على املاكه ويسهم في الحركـات الوطنية التي كانت تجيش بها بلاده ، خلال رزوحها تحت الانتداب الفرنسي كما يتحمس للدفاع عن حق العـرب في فلسطين ، ومما يؤثر عنه انه كان يشتري السلاح من ماله الخاص ويمد به المناضلين عن ذلك الجزء الغالـي من وطننا المقدس . ومنذ بضعة اعوام ولاتقانه اللغات : العربيـة والانكليزيـة والفرنسيـة والتركيـة عين مديرا للعلاقات في وزارة الاعلام السورية وظل في منصبه هذا حتى وفاتـه .

مــع الادب :

بدأ الكتابة عام ١٩٢٩ يوم كان طالبا فـي « عاليه » ثم والاها نثرا ونظما متأثـرا بشـعراء المهجـر ، وبعض الشعراء الانكليز بخاصة « ت.س. اليوت » و « روبرت بروك » كما تأثر بمفكرين عرب كيعقوب صروف واسماعيل مظهر وسلامة موسى ، وفؤاد صروف . ومفكرين غربيين كالفيلسوف الالماني « بوخنر » و « داروين » و «فرويد» وظل يتابع الكتابة ناقدا ومؤلفا ومترجما فنشر في العربية العديد من البحـوث والقصائد المترجمة والعديـد مـن البحوث باللغة الانكليزية التي كانت تنشرها له « المجلـة الشهرية للبحوث العلمية » الصادرة في «بوسطن» بأمريكا وقد دعته جامعتها عام ١٩٣٦ لتدريس الادب العربـي فيها .. ظهر له في حياته كتابان بالعربية : « شـوقي وعصره » ، و « سريال » وهو دراسة عميقة في السريالية والشعر السريالي ضمنها قصائد له ولصديقه الدكتـور علي الناصر تنحو هذا النحو . وكتاب مترجـم بعنوان « الرقص في امريكا » وكتاب بالانكليزية بعنوان «الانسان تحت تأثير غدده » . وما زالت آثـاره المنشورة التـي حرصت زوجه بعد وفاته على جمعها وتبويبها تنتظر من يخرجها من ظلمات الادراج لتلامس النـور فينتفع بهـا جيلنا والاجيال الآتيـة .

اسلوبه وطريقته في النقد :

لئن لـم يقلـع تلاميذ « سقراط » عـن عادتهـم بالاجتماع به ، كذلك لم يقلع اصدقاء « اورخان ميسر » عن الاجتماع به ، وكنت في اواخر ايامه اجتمع به لاسري عنه من نحو، ولأتطارح واياه القضايا الادبية والفكرية التي لا تفتأ تفرض نفسها على حياتنا الادبية والفكرية من نحو آخر ، موقنا بأن من شاء ان يعرف « اورخان » الانسان فليصحبه يجد الانسان ، ومن شاء ان يعرف « اورخان » الاديب والمفكر فليسمعه يجد الاديب والمفكر فكأن انسانيته وأحاديثه توأمان متكاملان من الصعب على من لم يصحبه الكشف عن هاتين الظاهرتين . وفي لقاء جرى لي معـه قبيل وفاته بثلاثة اشهر دار حديثنا حول اسلوبه وطريقته في النقد فابتدرني قائلا : ما رايك في اسلوبي ؟

قلت : ليس اسلوبك كما وضح لي من خلال قراءتي كتاباتك بالاسلوب الساحر الخلاب الذي يأسر برنينه ، ولا بالاسلوب ذي الديباجة الذي يعنى بالشكل ولا يحفل بالمضمون ، بل هو اسلوب يقترن شكله بمضمونه فـي سهولة وايجـاز مع الدنو من الاسـلوب العلمي المليء بالافكار ، والبعيد عن الاسلوب الادبي ، المليء بالاخيلة والتشابيه التي لا تجدي نفعا .. فأنت اديب مفكر وعيت البلاغة التي تعني الايجاز فحسب ، وضعت آراءك علـى اسس فكرية مركـزة دون الاحتفال بتنميقها .. ولست متأثرا ــ كما أرى ــ بسواك من الادباء ممن قرات لهـم او تتلمذت عليهم ، لانك تحرص اشـد الحرص علـى ان تكون لك آراؤك الخاصة في الادب والنقد ، كحرصك على ان يكون لك اسلوبك الخاص ، وهذا يعني ان لك شخصية مميزة ، وان هذه الشخصية تتجلى واضحة اتم وضوح في كتاباتك وتفكيرك . ويبدو لي أن لثقافتك التي بنيتها من اطلاعك الواسع على ثقافات الامم التي اتقنت لغاتهـا الى جانب اطلاعك على ثقافة امتك ، اثرهما البارز فـي تكوين شخصيتك ، ولعل لمراحل حياتك التي عشتها اثرها في بلورة هذه الشخصية .. قلت له هذا وقد خامـر قلبي شك في قعودي عن مقصود غرضه واذ بان لـي انه وجد رأيي فيه عند ارادته وحسب بغيته ، ابتدرته قائلا : **هذا رأيي فيك فما هو رايك في نفسك ؟** قال وهو يغالب الما دب في أسارير وجهه : يعتمد اسلوبي في النقـد بخاصة على مرتكزين :

احدهما الموضوعية المطلقة ، وثانيهما الاستنتـاج الرياضي في حدوده التجريدية المعروفة في الرياضيات .. اما الطريقة فيمكن تعريفها بأنها طريقة قياس تلعب فيه

النسبية دورا كبيرا ولتبيان ذلك اقول : اني أعتمد في تقييمي أي نتاج أدبي علـــى ثقافتي الواسعة ومتابعتي تطور الادب العالمي في شتى مجالاته على قدر المستطاع ، وحين اتناول النتاج الادبي الذي هو موضوع نقدي اقيم توازنا بينه وبين اي نتاج عالمي يقابله ، ان في القصة او في الشعر او في البحث على تباين موضوعاته ، ومن هنا استمدمقومات تقويم النتاج بصرف النظر عن النسبيةالمحلية كما يريد بعض اخواني وزملائي ان يجعلني التزم الاعتبارات المحلية .. ان التقويم الذي يقوم على اعتبار النسبيةالمحلية ليس تقويما جديا ذا أثر فعال في تطور النتاج المحلي . فمثلا لا استطيع ان اقول ان قصة فلان سخيفة بالنسبة للمستوى العالمي الا انها جيدة بالنسبة لما يكتب عندنا من قصة ، وقس على ذلك في الشعر وفي اي مجال ادبي آخر .. ان النقد عندي ليس عملية يمكن حصرها في النسبة المحلية لانه محاولة تقويم نتاج انساني اكثر منه محاولة تقويم نتاج محلي او فردي . وهب ان بلدا متخلفا استطاع بعض الميكانيكيين فيه ان يصنع دراجة عادية يمكن استعمالها واستخدامها بدلا من الدراجات المستوردة من الخارج بيد ان السؤال الذي يطرح بعد ذلك هـو : اي قيمة لهذه الدراجة في عصر يصنع فيه الكثيرون سفنا فضائية وصواريخ تنطلق من كوكب الى آخر ؟ ليس من شك في ان قيمة هذه الدراجة تبقى في مثل هذه المفاضلة قيمة بدائية ، ولو ان الدراجات التي صنعناها تعود علينا بفوائد اقتصادية وقومية جمة .. يتضح من قولي ان ليس في العالم مستوى ادبي محلي ، بل هناك مستوى ادبي عالمي هو ارقى ما استطعنا الوصول اليه عبر قرون واجيال عديدة من النضال الفكري ..

آراؤه ونظراته في الادب والنقد :

واذا احسست من قلبي الاصغاء اليه مضيت في الحديث معه فترامى بنا الى ذكر ادبنا العربي المعاصر فسألته ما رايك اذن في ادبنا المعاصر ؟

اجاب : ان ادبنا اليوم مزيج من تيارات متباينة جاءتنا من الغرب ، وهي نتيجة طبيعية للحياة السياسية التي عشناها ، فرحبنا بسخاء عفوي بكل التيارات التحررية دون ان ننتبه الى طابعها .. لقد رحبنا « باليوت » و « عزرا بوند » وثوريين غيرهما . كما رحبنا مؤخرا بعد استقلالنا « بسارتر » و « كامو » وسواهما .. اننا — في الواقع — لم نفهم من التحررين نزوعهم التحرري بقدر ما فهمنا منهم ثورتهم التحررية ، فكانت لنا ثورتنا المخفقة في شتى ميادين الفكر .. ان الادب العربي اليوم يجتاز مرحلة دقيقة في حياته اذ نراه يتأرجح بين تراثه الادبي وبين الاغلفة الشفافة ذات الالوان البراقة التي اجتذبت واغوت العديد من رجال الادب والفكر عندنا ، فدبت فينا الفوضى الفكرية التي لا نبرح نعاني بعض جوانبها بينا نرى في بعض الجوانب الاخرى ما يشجع على توليد افكار جديدة من شأنها ان تبدل من المفاهيم الغامضة في معاجم مجتمعنا الفكري والنفسي .. صحيح اننا لم نسهم حتى اليوم في بناء الادب العالمي ، بيد ان خطانا الواسعة الحثيثة تبشر بغد ادبي جميل خير .. ليس ثمة في الادب العالمي المعاصر أي اتجاه الزامي ، بل ثمة ادب ينبثق من رصيد فكري غني جمعه انساننا المعاصر عبر المائتي سنة الاخيرة اللتين عاشهما في تاريخه ، ولقد ابعد هذا الانسان والاصح انسان الفكر الحر عن اي التزام على الرغم من انه جعل الصلة وثيقة بينه وبين الارض التي يعيش عليها .. حتى النقاد السوفييت الذين حملوا اول لواء للالتزام اخذوا اليوم يتراجعون عن خطة المفروض عليهم فرضا عقائديا ، فبرز كتاب انشقوا عليه امثال : الكسندر ابوش والفريد كوربلا الالمانيين ، والكسندر فوتشو وغالب يوغسلاف ، اليوغسلافيين على الرغم من ان هؤلاء الكتاب كانوا على التزام بالعقائد نفسيا وليس بقسري ، وعلى الرغم من ان الحكومات التي يعملون تحت ظلها منحتهم فرصا جميلة رحبة العطاء .

اما نحن فقد التزمنا « الالتزام » من حيث اللا التزام فجاء كل ما نكتبه عن طريقه وكأنه شيء منفصل تماما عن تاريخنا وتراثنا وحضارتنا ، او كأنه التزام لفترة سياسية وليس التزاما فكريا لعقيدةمعينة او اتجاه معين، ولا غرابة في ذلك لان ادباءنا عاشوا اصداء السياسة ، ولم يعيشوا السياسة نفسها ، فكان لنا نتيجة لذلك ولعوامل اخرى هذا الالتزام المشوه الطرح الذي ينكره أي التزام آخر في ظلال اي حكم عقائدي عرفه تاريخنا المعاصر .. ان اي نزوع نجده في الادب العالمي ان في قديمه او جديده نزوع يحمل طابعا ذا قيمة تاريخية وفكرية ، الا اننا هنا قد ضللنا الطريق ورحنا في متاهات ليس لها بداية ولا نهاية واضحة ، نرقص ضمن خطوطها رقصات لا هي رقصاتنا الابتهالية ، ولا هي رقصات الدعارة الواردة الينا من الخارج .. لقد ظهر في العالم خلال السنوات الاخيرة مثلا نزوع جديد الى القصة هو النزوع الى الخرافة ، بدأ في قصص الكاتب الالماني « كورت كوسنبرغ » ثم انتقل الى السويد فظهر في قصص الكاتبة « ماريانا آينبرغ » ثم انتقل الى مناطق اخرى في اوروبا فأخذيظهر في سويسرا وفرنسا وايطاليا .. قد يكون لهذا النزوع في الالتجاء الى الخرافة مرتكزه العلمي من حيث النفسية والذهنية الاوروبيتين في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، اذ من المعروف ان اوروبا قد تمزقت بعد الحرب العالمية الثانية وظهرت هناك دول ودويلات تحمل فيما تحمله عقدا نفسية معينة ، منها ما كان نتيجة للانهزام ، ومنها ما كان نتيجة للنصر ، بينما ظل واقعها الحضاري التاريخي والجغرافي واقعا لا يتغير ،

لذا كان لا بد للهروب من هذا الواقع ، فكان ثمة هـذا النزوع الى الخرافة في القصة ، بيد اننا هنا التزمنا حتى الخرافة كبضاعة مستوردة لا علاقة لنا بها في تاريخنا القديم ، اذ نعمد الى الخرافة كرمز للاعراب عن افكار معينة لم تكن اجواؤنا السياسية تتيح لنا فرصة الاعراب عنها بصراحة ووضوح .

ان نزوع بعض كتابنا وشعرائنا الى الخرافة لا يمكن ان يعتبر الا تقليدا هو من اسفاف الالتزام اللا الزامي ، والا ظاهرة لتفكك نفسي تهنا في مداه بين ماضينا وغدنا الذي لم تكتحل بعد اجفاننا بأحلامه ..

وقبل ان نخرج عن نمط ما نحن عليه في مجلسنا القيت عليه سؤالين اخيرين شئت ان اختم بهما حديثنا فقلت :

ما رايك في الشعر العربي الحديث ؟

أجاب بلسان الذليق : ليس عندنا شعر عربي حديث .. ان كل ما عندنا ليس الا ومضات من ماضينا الذي كناه .. كناه حينا على الذرى ، وكناه حينا آخر على السفوح ، وبالاضافة الى ذلك يبدو في شعرنا العربي المعاصر تياران واضحان : احدهما التيار التقليدي للتيارات التحررية التي ملأ بعض اصدائها اسماعنا ، كما يتميز التيار الثاني بالعودة الى النفسية المراهقة التي كانت لدى الشعوب التي انتقلت من اوضاع اجتماعية معينة الى اوضاع اشتراكية عن طريق اللا اختيار . وكما تغنى شوقي بالرمال والاطلال وهو بين القصور والرياض كذلك راح بعض الشعراء يتغنى اليوم باطلال الثورة الشيوعية عام ١٩١٨ مع العلم ان بيننا وبين ذلك العام فترة مديدة ، استطاع خلالها الذهن الانساني الجبار ان يبدع كثيرا مما نعيش اليوم في نعيمه ، كما استطاع ايضا ان يغزو مجاهل كان غزوها في الماضي حلما بعيدا .. ان كل ذلك يعتبر سلوكا غير اصيل في ادبنا ، سلوكا تقليديا لا يرمي الى هدف معين يتعلق بواقعنا ، بيومنا ، بغدنا ، بكل ما نعانيه من امراض اجتماعية ، ونكسات ذهنية ، نهدف من خلال معاناتنا اياها الى بناء امة ، واستعادة ما كان لها من عزة ومجد ، والى تبوء مكان يليق بنا في المجتمع العالمي الكبير .

ثم سألته : ما الذي كان يدفعك الى التقديم لبعض آثار الادباء الناشئين والتعريف به ، وما هو رأيك فيهم ؟

اجاب : ليس ثمة من يدفعني ، بل كان ثمة ما يدفعني .. اما هذا الشيء الذي كان يدفعني فهو ضرورة تشجيع النتاج الادبي الناشيء لعل في ذلك بعض الخير بالنسبة لادبنا وذلك عن طريقين : طريق تعريف القراء بهم وطريق ترك المجال لهم لاضافة المزيد من المعرفة الى رصيدهم وبالتالي الى تطويرهم تطويرا ذاتيا يمكن ان يسمو بهم الى مستوى الادب الرفيع حيث يستطيعون ان يسهموا في بناء الفكر الانساني أنى كان .

فالادباء الناشئون عندي قسمان او فئتان : فئة يطغي على افرادها الغرور فيحسبون انهم عمالقة في الادب والفكر فتراهم ينصرفون عن المطالعة الجدية ليدوروا في اقبية متاهاتهم الذاتية ، وقد يلمع بعض هؤلاء وذلك بسبب وسائل الاعلام الرخيصة ، غير انه لا يلبث ان يعود هباء منثورا .. وفئة اخرى لا تفتر بما يكتب عنها او تجد اسماءها تتردد على الالسن ويتكرر ظهورها في الصحف والمجلات .. انها ماضية في الدرس والمطالعة التي تضيف الى رصيدها الثقافي ارصدة جديدة تعينها في مجالاتها الفكرية التي نذرت نفسها لها .. ولقد عرفت في حياتي الفكرية عددا غير قليل من افراد هذه الفئة كان يندفع في حماسة بالغة نحو تعلم لغة او اكثر من اللغات الاجنبية ، وهو في سن غير مبكرة ابتغاء الوقوف على قدم ثابتة في مجالات الفكر التي لا ترحم عواصفها . واخال ان افراد هذه الفئة سيكتب لهم التوفيق والنجاح والخلد ، ما داموا واثقين من انفسهم مؤمنين برسالتهم ..

شعلة لن تخبو :

وبعد ... أوليس ثمة شعاع من نور لمحتموه من خلال عرضي عليكم شخصية فقيدنا « اورخان ميسر » ونظرته الى الادب والنقد ؟ .. انه عندي الشعاع الذي سيظل ينير دروبنا ما بقيت الحياة مستمرة في صعودها الحضاري .. تلك الحضارة التي قدسها « أورخان » في حياته كما لم تقدس اية ظاهرة من الظاهرات المبدعة التي تجسد الحق والخير والجمال .

ولشد ما ساءلت نفسي : ترى .. اين الجامع المشترك الذي يوحد بين موقف اديب امضى عمره يصور الحياة تصويرا صادقا ، ويعبر عن وعي امته تعبيرا صادقا كذلك وبين موقفنا نحن الذين هالنا غياب هذا الاديب ؟

ان ثمة فرضية نفترضها في ادبنا الغائب هي ان مجرد وجوده يؤكد ارتباطه بحياتنا فكريا وعاطفيا وان ثمة فرضية ثانية يفترضها تاريخنا الادبي المعاصر تبدو في ارتباطه به فكريا وعاطفيا كذلك . بهاتين الفرضيتين يسهل علينا استيعاب دور الاديب في حياتنا وتاريخنا الادبي ، ويسمح لشاعرنا بمصاحبة هذا الدور والانطلاق منه نحو تقويمه واحلاله المحل اللائق به .. فقضيتنا اذن ليست قضية اصطفاء بقدر ما هي قضية تقويم . قضية كشف عن هوية كانت بالامس تحمي نفسها بالمحافظة على ارتباطاتها الفكرية والحياتية معا ، وأمست اليوم وليس من يحميها الا ابداعها وحده الذي فرض نفسه على الحياة وما بعد الحياة ، وعلى الحاضر الذي عاش حقبة منه ، وعلى المستقبل القريب والبعيد ..

اغنيـة للعيد

يـا واهـب البِشر والامـال للبشر ... ما لي ارى الدمعة الخرساء في بصري
ما لي ارى اللوعـة السوداء جاثمـة ... في دفتر العمر، في دنياي، في قدري
عشرون حقل جليـد مقفر زرعـت ... كف الزمان ولم احصد سوى ضجري
عشرون بذرة احـلام مجنحـــة ... رويتها من دمي ... ماتت ولم أثر
وقلت للنفس مهلا عل زهـر غـدي ... ينمو، وعل الاماني الخضر في سفري
ركبت خيل سنيني المجهضات دمـا ... وحاصب الريح تذري عزة الشجر
وسرت فـي غابة الايـام مرتحـلا ... وربة الشعر تنزو الدمع في الفكـر
فهل جنيت من الاسفار يا املـي ... في رحلة العمر غير اليأس والخور
يا زارع الورد في ثغر الصغار ومـا ... اهديتني زهرة يزهو بها صفـري
لا تقتل البسمة الخضراء في شفتي ... وهاتها مزنة تروي صدى كبـري

بعقوبة ـ العراق

هادي الربيعي

وفـــاء :

ليس من شك في ان « اورخان ميسر » الاديـب والناقد قد خلف لنا آثارا جمة مبثوثة في ثنايا الصحف والمجلات ، استقطبت كل تجربته فـي الادب والفكر والحياة ، والمت بكامل تعبيره الحر عن وعيه ووعي امته ، فمن حقه علينا ان نجمع شتاتها فننشره على الملأ لندل على وفائنا له ، واعجابنا بالدور الذي اداه فشف عن امكانات دعمت ادبنا وفكرنا المعاصرين ، وبعثتهما على النمـاء والتجديد .. اوليست التجربة والتعبير عنها بصـدق صورة من صور الحياة ؟

اوليس الحفاظ على الصورة حفاظا علـى الحيـاة نفسهـا ؟

وهل ثمة أحوج منا اليوم على حياتنا ، على فكرنا ، وبالتالي على وجودنا ؟

ان « اورخان ميسر » ما كان بالنسبة لنا شخصا ، بل كان مناخا ، مناخا فكريا لا نبرح نستمتع بجوه ومـا اشبهه بالفيلسوف « رافيسون » الـذي قـال عنـه « برغسون » في رثائه : « كان اقل الناس محاولة للتأثير في الآخريـن .. بيد ان روحـه كانت اكثر تمردا علـى على سلطان الاخرين بطريقة طبيعية هادئة قوية » ..

قد يكون « اورخان » لدى عارفيه اقل الناس تأثيرا في الاخرين .. بيد ان روحه كانت اكثر تمردا على سلطانهم ، لانها ظلت طبيعية هادئة قوية ، ومرد ذلك الى انه كان واسع الخلق رحب الاناة ، صفت نفسه من شوائب الخيلاء ، ومقابح الزهو والكبر ، لم يثن طرفه عن الرقـة لمن اخلص لهم الود واخلصوا له ، وذلك دليل على استواء خلقه ، وحسن تقويمه ..

حسبي ان استعير الساعة ما قاله في رثاء صديـق له ابان فيه عن نفسه بقدر ما اشار به الى صديقه :

لن تغيب

ان هيولاك ستظل تتفتح مع كل برعم خير
وستبقى تحتضن كل صراع ينثر المجد والبطولة
وستدوم تنبض في كل زند يبني الحياة

واذ بح صوتك في تراتيلك التي رددتها في اورقـة معبدك الاصم ، وابتلع ضباب البخور الخدر هذه البحة فان همسا ناعما من ندائـك المغلف بالنشـوة والحسرة والتوق سيمضي ابدا يضم كل صدى مئذنة او يعانق كل اهتزاز ناقوس . اما رؤاك التي صبغت دماها من جبلـة يأسك المشرق ، ومن ذوب الملك الذي تاه ، وهو يحيل الآهة بسمة ، والانة نغمـة .. رؤاك هـذه ستبقـى في حلقات دبكاتنا عروسها التي تلهم المزمار ، تلهب الرقص، وتلوح للفجر ان يغفو ! ..

اجل .. لن يغيب « اورخان ميسر » الذي كـان بيننا طاهر القلب ، سري الخلـق ، حر الضمير ، حـر التفكير ، لان هيولاه ستظل تتفتح مع كل برعم خيـر ، وستبقى محتضنة كل صراع ينثر المجد والبطولة، وستدوم تنبض في كل زند يبني الحياة ، وفي كل فكر يسمو بها !

دمشق

سعد صائب

بطاقات شوق للقنيطرة

عزيزتي القنيطره :
ـ تحية ، وبعد :
لئن سألت عن فتاك يا مدينتي ،
فانني ، يثيرني الحنين ..
يداي تذهبان في المسا اليك
لتمسحا جرحـك الثخين ..

ـ لئن بعدت الآن يا حبيبتي ،
وغامت الكروم خلف كومة الحجاره
لئن تعبت اليوم من كثافة الظلام
لئن تهاوت من وراءك التلال والحقول
فانت تصمديـن
لاجل ان تنتصر الحضاره ..

قنيطره ، حبيبتـي :
يداي من اعماق خندقي تلوح
وانت في مشابك الرصاص تومئين لي
وقلبك الجريـح
لا ينثني يدق في خواصر النهار
يفيىء كل دار
ويبتني لكل أصيد مزار ..

عزيزتي قنيطرة ،
ما زلت أنت ، أنت يا مدينتي ، مسيطره
لان في سمائك البعيدة القريبه
تشع لي في الافق نجمة الرجوع
يشرش النداء كالجـذوع
لأن في قرميدك الملون الحزين
يا حبيبتـي ..
نقشت سمت عودتي
وانت من نوافذ الصباح ، ترقبينني ..
أجيىء في مواسم الرياح

وتحضنينني ...

اليك يا مدينة الصمود ، تحيتي
فانني من ها هنـا
من لفتة المفارق
أقول للرفاق في مداخل الخنادق
تكاتفوا ، وأطلقوا الرصاص في منابت الرمد

عزيزتي القنيطره :
تحيـة وشـــوق
اليك مـن دمشق ،
حنين كل والد له ولـد
في ظاهـر البلـد
ينتظـر الاشـاره
لاجل ان تنتصر الحضاره ..

ـ سمعت مـرة :
وانت تؤسرين يا حبيبتي ـ
وجيبك الحزين
ووجهك الشمس الرزين ،
مخمشا ، في قسوة ، ملقى
على الحزون ..
لكنني ـ أثارني الانين ـ
فاظلـم القمـــر ..

وبعد يا قنيطره
يا نجمة تشع في سمائها المسيطره
سحابة ، تحملني ، وتبذر المطر
لنلتقي ، ويزهر القمر
عيناى تذهبان في المسا اليك
كنجمتي حنـين ..
يـا قنيطـره ..

دمشق — اسماعيل عامود

احمد راسم الشاعر الناقد

في الذكرى العاشرة لوفاته

بقلم نقولا يوسف

* * *

اشتهر احمد راسم ـ الشاعر الناقد ، العربي المصري السكندري ـ بشعره الفرنسي المرسل ونقداته الفنية ، منذ فجر حياته التي انتهت في يناير ١٩٥٨ ، وشغلت كتاباته عددا من النقاد في بلاده وخارجها ، وترجم بعض شعره الى العربية واليونانية ولغات اخرى (١) .. ثم احتجبت مؤلفاته في مكتبات الاصدقاء بعد ان توارى عن المجتمع الذي كان من نجومه ، وكان قد نشر معظمها بالفرنسية ، فلم يتذوقها غير القليل من الملمين بهذه اللغة ..

وكان احمد راسم ثمرة من ثمرات مدرسة الثقافة الفرنسية التي ظهرت بمصر وبعض الاقطار العربية الاخرى منذ أوائل القرن التاسع عشر ـ اي منذ ان بدأت الصلات المباشرة بفرنسا ولغتها وثقافتها في اثناء حملة نابليون على مصر (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) وما اعقبها ـ في حكم محمد علي وخلفائه ـ من بعثات تعليمية الى فرنسا ، وانشاء معاهد فرنسية في ربوع الشرق العربي تثقف فيها عدد وافر من ابنائه ... وكان منهم ذوو المواهب الادبية ممن عبروا في هذه اللغة التي اجادوا التعبير بها كتابة وحديثا عن الهاماتهم الشعرية والقصصية وشتى فروع الادب .. وكان نتاجهم الادبي يفيض ويتوالى حتى لتستطيع ان تحصي في النصف الاول من القرن العشرين ـ من ثمار الشعر الى جانب مصنفاتهم النثرية المنوعة الاخرى في هذه اللغة .. وجلها مكتوب بأسلوب بليغ رشيق ـ فالمعروف عن الشرقي موهبته في حذق اللغات الاجنبية ـ وبذلك كانوا سفراء للروح الشرقي العربي لدى الغربيين.. فلما ان كثرت اليوم المدارس العربية ، وتضاعف عدد المتعلمين والكتاب والقراء في اللغة العربية ، واتسعت حركة الترجمة اليها ، ومنها ترجمة مؤلفات الادباء العرب المكتوبة بلغات اجنبية ، استطاع مواطنوهم ان يطلعوا عليها في لغتهم كما اطلع عليها ابناء اللغات الاخرى ، وكان النفع مزدوجا ...

وولد الشاعر احمد راسم بالاسكندرية عام ١٨٩٥ ، ونشأ في اسرة كبيرة تصاهرت مع بعض الاسر التركية بمصر .. وبرز افراد منها في الفنون والاداب ـ مثل ابن خاله وزميل صباه ـ محمود سعيد ـ رائد الفن التشكيلي (١٨٩٧ ـ ١٩٦٤) كما تقلد نفر منها المناصب الحكومية العالية .. وتعلم شاعرنا بالمدارس الفرنسية ، وتلقى العربية على استاذ خاص ، والتحق بمدرسة رأس التين الثانوية بالاسكندرية وحاز شهادة « البكالوريا » ، ثم درس القانون « بمدرسة الحقوق الفرنسية » ونال اجازتها ، وارادت اسرته ان تلحقه بوظائف السلك القضائي التي تؤهله للمناصب الرفيعة ، ولكنه فضل الاشتغال بالادب والفن ، واكب على مطالعة الكتب الادبية والفلسية والعلمية .. ثم قبل العمل في مناصب ثقافية تتفق مع نزعته الادبية حين رأت حكومات بلاده ان تنتفع بمواهبه ، فاوفدته بعد الحرب العالمية الاولى ملحقا ثقافيا بالسفارات المصرية في عواصم ايطاليا واسبانيا وتشيكوسلوفاكيا .. فكان يطلع هناك على مظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية ، ويصور انطباعاتها في شعره ..

ثم عاد الى وطنه عام ١٩٢٨ فتقلد منصب « السكرتير العام » لرئاسة مجلس الوزراء ، فوكيلا لمحافظة القاهرة فمحافظا لمدينة السويس (١٩٤١) ثم اعتزل الوظائف جميعاً بعد هذه الاعمال والتنقلات، ليتفرغ للادب وحده حتى وفاته في يناير ١٩٥٨ ، ولو انه لم يهجر الادب والقلم خلال تلك الوظائف ، ولم يلهه الادب عن القيام بمهام واجباته ، فعرف في بلاده وخارجها بوطنيته والاعتزاز بشرقيته وعروبته ـ وكان يضع دائما مصلحة وطنه ومواطنيه فوق كل اعتبار ـ وكان لذلك موضع تقدير المواطنين والاجانب جميعا . .

وكان في نحو العشرين من العمر حينما نشر كتابا بالعربية سماه: « الدين والانسان » ـ (طبع بالاسكندرية عام ١٩١٦ ـ وكتب على غلافه : الجزء الاول ـ وضع بالفرنسية ثم ترجم وروجع) .. ووضعه في قالب حوار قصصي تتخلله صور واوصاف فكهة ـ بين فيلسوف مادي ملحد ، وشاب روحاني مؤمن .. ويرد في سياق المناظرة عدد من اسماء الفلاسفة وبعض النظريات الفلكية ، والاراء العلمية والتجارب الكيماوية .. وفي النهاية يقول الشاب لمناظره : «اعذرني اذا الجأتني المناظرة لمخالفتك في جميع آرائك . فهذا لا يمنعني من احترام افكارك بالرغم من تمسكي بالايمان الذي يشترك معي فيه السواد الاعظم من الناس ـ عظيمهم وحقيرهم ، عالمهم وجاهلهم . ونحن قانعون بما لدينا من الادلة والبراهين على وجود الله ـ اذ لم يقم للآن برهان صحيح ينفي وجوده . وبعبارة اوضح اقول لله اني لست متعصبا ، بل اني مستعد ان اخضع لك في تغيير معتقدي ان امكنك ان تقيم برهانا ناصحا على صحة دعواك ـ لا كما فعلت الليلة من اطالة القول بلا جدوى ولا نتوج ! اكرر لك قولي اني ثابت على ايماني ، فبرهن لي على فساد حسي وشعوري ببرهان يقبله العقل ، اصير ماديا مثلك » .

ويدل هذا الكتيب الباكر على اهتمامات هذا الاديب بالمسائل الفلسفية والعلمية منذ صباه ، وايضا بترجيح الايمان والروحانية على الالحاد والمادية ، ثم على النزعة الشعرية التي كانت تلازمه منذ كتاباته الباكرة ، فتراه مثلا يصف البحر في هذا الكتيب بقوله : « .. فارقته وركبت عربة قافلا الى بيتي ، متخذا طريقي رصيف البحر ، كان البحر اذ ذاك ساكنا كانه مخلوق عظيم انهكه التعب فاستلقى على ظهره يستنشق الهواء العليل ، شاخصا ببصره الى السماء التي اخذت زخرفها وتزينت بتوائم النجوم ، وما يحوط ذلك من جمال وبهاء . وبين برهة واخرى يجري في قبة الافق شهاب فيختط قوسا يخترق ظلمة الليل ، وتستنير به زرقة السماء فتزداد جمالا .. »

وفي العشرين ايضا كان احمد راسم يتردد على مرسم الفنان « ارتورو زانييري » بالاسكندرية (فيما بين ١٩١٦ ـ ١٩١٨) ليتمرس بفن التصوير ، مع بعض اصحابه الشباب ومنهم الفنان محمود سعيد، وابراهيم راتب ، وسباستي ... حتى قضت ظروف بان يغلق المرسم بعد ثلاث سنوات ..

كما بدأ يتعرف الى الاوساط الادبية الاوروبية ـ المنتشرة يومذاك بالاسكندرية ـ وكانت اللغة الفرنسية التي يجيدها همزة الوصل بين تلك المنتديات الاوروبية المختلفة اللغات .. ثم عرف بعض الصحف والمجلات الفرنسية ومنها مجلة « مصر الحديثة » و « الصحيفة المصرية الاسبوعية » ـ فاخذ ينشر بها بواكير شعره الفرنسي الذي ضمنه على مر السنين خمس عشرة مجموعة ، كانت تصدر تباعا حاملة هذه العناوين : ـ « كتاب نيسان » ١٩٢٧ و « جدتي تقول ايضا .. » ١٩٣٠ (وكانت هذه المجموعة الاخيرة ضمن كتاب نيسان ثم طبعت على حدة) .. و « الابتسامة الاخيرة ليسوع » ١٩٣١ (وهي من وحي مدينة براغ) و « زمبول تقول ايضا » ١٩٣٢ و « سقت حماري » ١٩٣٥ و « مهبول عتاقة » ١٩٤١ و « في الحديقة العتيقة » ١٩٤١ (وهذه الاخيرة مجموعة من سابقاتها)و « الكتبي الصغير الاستاذ علي» ١٩٤٣ و « نثر لا جدوى منه » ١٩٤٩ و « ملك » ١٩٥١ و « حاتم الطائي » ١٩٥١ و « نوال » ١٩٥٢ و « نهـا » ١٩٥٣ و « سامية »

١٩٥٤ و « يوميات مصور خائب » ١٩٥٤ و « صحف مختارة » ج ١ ـ ١٩٥٤ (وتوجت الاكاديمية الفرنسية بباريس هذا الكتاب الاخير في ذلك العام) ...

وكان قد اصدر عام ١٩٥٢ كتابا سماه : « عنـد تاجر المسك » ترجم فيه الف مثل وحكمة عربية الى اللغة الفرنسية ، هادفا الى تعريف الغرب بحكمة الشرق ..

وكتب بالفرنسية مقالات نقدية لبعض الشعراء ، وقدم ديـوان الشاعرة « كوليت نيفين » ١٩٤٧ احدى شاعرات المدرسة الفرنسيـة بمصر ..

وفي لغته العربية اصدر غير كتابه السالف الذكر : « الديـن والانسان » ١٩١٦ ـ كتاب : «الحديقة المهجورة» ومسرحية «السكرتير الفني » وكتابه في النقد الفني : « الظلال » الذي نقد فيه اعمـال بعض الشعراء والمصورين من معاصريه مثل : الفنانين احمد صبري ، والتلمساني ، وصباغ ... والشعراء موسكاتيلي ، وفيشتر ، ورؤول بارم ... وغيرهم ويعد بهذا الكتاب من رواد النقد الفني ـ وكان في نقده يبدي آراءه الخاصة في الاتجاهات الفنية الحديثة ، وفي حركـة التجديد التي لا تستدعي في مذهبه نبذ التراث القديم ، والمبالغـة في محاكاة كل جديد . ومن ذلك قوله في كلمة عن المصور احمـد صبري : (٢) وكان في هذا معبرا عن اتجاهه في ادبه الجامع بـين الجديد والتراث الشعبي ..

« .. ما من احد ينكر ان المدنية الحالية استلزمت كثيرا مـن التطور ، فطفت بمستحدثاتها على كل قديم خصوصا بعد حرب سنـة ١٩١٤ ، فقد شمل التجديد مختلف نواحي الحياة ، وامتد الىمقومات الثقافة من علم وفن وادب . ولكن التطور ان كان من مقتضياته نبـذ القديم كلية في ميدان ما ، فانه في ميدان الفنون مثلا يصعب النيـل من تراث لها تساندت الاجيال المتعاقبة على ابداعه ، ولقيفي كل جيـل منها ما يعززه ويزيده قوة ومناعة . ثم هو في الوقت نفسه خالد خلود الالهام والحس والوجدان ، ومجموعة المشاعر المودعة فيه ، والتـي تغذيه بالحياة . غاب ذلك عن اولئك الذين ظنوا ان في الفن مجـالا لبطولة يقتضونها باحداث تطور فيه ، يشبه تطورات الحضارة الحالية في عنفها وسرعتها والانقلاب الذي تحدثه ، فجاهدوا في ابتكار نظريات في الفن ـ كل ما يمكن ان توصف به انها تجديد ـ ولكن على هامش الفن ـ اي على غير اساس منالتعمق فيه والتمكن من اسراره » ..

وفي البيئة السكندرية البحرية ، بخصائصها الجمالية والاجتماعية حيث ولد احمد راسم ونشأ وتعلم ، وخالط الادباء والفنانين من شتى الاجناس ، وقضى طفولته وصباه بين اسرة شرقية محافظة تبلـورت شاعريته ، وانعكست على قصائده الباكرة مثل : « وجدتي تقـول ايضا .. » و « زمبول تقول ايضا .. » و « احمد يقول .. » ـ وكلها تصور طفولته ، وكانت جدته هذه جركسية حسناء تسمى « رنججيل » ـ كلمة تركية تعني لون الورد ـ يهدي اليها ديوانه « كتاب نيسان » ١٩٢٧ بقوله : « الى جدتي رنججيل ـ من كانت جميلة وتحب صور السحب ، ومن تطوي الان يداها المعجوزان في سلام الله . » وامـا زمبول فاسم خادمة الاسرة العجوز ، واحمد هو الشاعر الصبي .. ثم



احمد راسم

•

تصادفك في هذه القصائد القصصية اسماء عربية كالست حنيفـة واحسان هانم وسليمة واقبال .. واسماء مساجد واماكن والفـاظ عربية ، تتناثر في السياق الفرنسي وتضفي عليه جوا شرقيا وروحـا عربيا ومرحا شعبيا صادرا عن شاعر شرقي صميم . .

ويشبه الناقد الفرنسي لوسيين الدبير (في مقدمته التحليليـة لديوان احمد راسم : « في الحديقة العتيقة » ١٩٤١) تفتح هـذه الروح السكندرية في شاعرنا منذ نشأته الاولى في تلك البيئة المحافظة وانعكاس مؤثراتها على اشعاره الباكرة بقوله : « ... ومثلما تتجمع عناصر الضوء السبعة في شعاع ابيض نهارا ، وتتحلل على وجه الماسة الى الوان قوس قزح ، وتنطلق في حزمة من الالوان لا يفصل احدهـا عن الاخر غير لون خافت ، هكذا كان تفتح الروح السكندري لاحمـد راسم ، فان شعاع البهجة الابيض ، او ما يماثله من العناصر الخالدة

---

(١) ترجم له الياس ابو شبكة وغنطوس الرامي والبير اديب عدة قصائد (مجلة الاديب ١٩٤٢ و١٩٤٣) ، وترجمت الشاعرة اليونانيـة السكندرية اليزابيت بساراس نحو عشرين قصيدة لاحمد راسـم من الفرنسية الى اليونانية فـي مجموعتها « المزمار الغريـب » ١٩٥٤ .
(٢) مجلة الهلال فبراير ١٩٤٨ . (٣) شعراء بمصر لجان مـسكاتيللـي الاسكندرية ١٩٥٥ ص ٥٥ ـ ٦٥ . (٤) المجلة الجديدة بالقاهـرة ديسمبر ١٩٤١ مقالة لحليم متري .. وللدكتور زكي المحاسني مقالـة عن احمد راسم بالاديب ١٩٦٤ .

لشعر الحب ، ينتشر على الفور مثل مروحة من الصور المتالقة .. كما كان هذا الروح ينبعث من سلالة ظل نساؤها طويلا لا يتذوقن الحياة الا فيما يدور باحلامهن في اعماق القصور المزدوجة الرتاج : «بالمشربيات» العربية الطراز ، وبالسياج الكثيف المرصع بالياسمين المتراخي . هي نافذة تزيد القنوط ثقلا على القلب المعتكف .. ثم لا يلبث حفيـــد «رنججيل» ان يبلغ عهدا تبدأ فيه الصبايا حوله في استرواح الحريات البريئة والمهارة من الحياة الغربية .. ومن ثم فان « الاشعار القديمة » تستظل بالحنين في رقة وفي وقت يتالق فيه الحب المراهق .. » !!

ثم شب الشاعر ، وعرف الحياة ، وعرف الحب .. وزادت معرفته ببلاده وبما وراء بلاده .. وتدفقت اشعاره من ينابيع الانسانية جميعا.

ومن وحي بلاده كتب عشرات القصائد ونرى في مجموعة سماها : « اشعار من مصر » قصائد تحمل هذه العناوين : الساقية ، سقطت حماري (خلال دغل من النخيل) ، الجار الفقير ، المهد الحزين، مرثاة، المقعد رقم ٢٢٣ ، حاتم الطائي ، وابور الزلط ، مسكـــن واحـــد ، التاكسي رقم ٣٩٠٢ ... ويستوحي قصيدته او قصته الشعريـــة : « مهبول عتاقه » من جبل عتاقة بالسويس ، وبطلها زاهد يضرب فـي الصحراء ويسكن كوخا عتيقا مع ذكريات حبيبته الغائبة ــ (على طريقة مجنون ليلى) ...

وفي رأي الشاعر جان موسكانيلي (في تقديمه لمختارات من شعر احمد راسم في « مجموعة : « شعراء من مصر » ١٩٥٥ (٣) : ــ

« احمد راسم اكثر الشعراء مصرية بين من كتبوا بالفرنسيـــة ، واكثرهم شهرة وشعبية . وان المرء ليكشف في مؤلفاته المتعددة عـــن بواطن بلاده ، حيث لم يتفن سواه من قبل بغير ظواهرها . وكان عليه كيما يوفق بين آراء القدماء والمحدثين ، في تنازعها الدائم ، ان يقدم منها مزيجا مقبول المذاق او كما يقول ايليان فينبير : مزيجا من الثقافة الاسلامية الرفيعة ، ومن ثقافة الغرب الاقل شفافية .. وهو الـــى جانب عمله الشعري جمع الف مثل عربي ترجمها الى الفرنسية ، وقام بهذا العمل في غيرة ودقة ، وارضى به عشاق الادب الشعبي المهتمين به في بلده .. واذا كان شعر احمد راسم يذكر « فينبير » بشعــر فيليب سوبولت (الشاعر الفرنسي) فالواقع ان في شعر راسم شرقية تذكر بحافظ الشيرازي والخيام مع فرض انهما تزودا بقراءة الشعراء السيرياليين بباريس ! !» .

وكان الناقد الفرنسي ايليان فينبير كتب مقدمة تحليلية لديوان احمد راسم المسمى « كتاب نيسان » ١٩٢٧ ومما جاء بها :

« كان ذلك فيما اذكر بناحية المكس بالاسكندرية في البيت الريفي المنفرد الذي سكنه الشاعر هنري تويل .. حين سالني هذا الشاعـــر مرة : « هل تعرف احمد راسم ؟ الم تلتق به قط ؟ يا له من نخلـــة بديعة ! » .. ولقد عرفت راسم بعد ذلك ، والحق ان له قامة مـــن اروع قامات بلاده ، قوام ممشوق كاحدى النخلات التي تحف بضفاف النيل .. غير ان هناك ما هو اكثر ، فقد ترامت النخلة الى ما هو ابعد من جسدها ، والى ما هو اعمق من روحها ، وامست سمة فحسب .. وتحولت الى مصنع عجيب تدور فيه الف الة تكرير ، واتخذت الحياة الداخلية منها هذا القالب .. وصدرت هذه العاطفة المنظومة مباشرة من هذا الجذع .. »

ويقول في شعره : « ان هذه الغنائية (الليريكية) في استمداد مادتها من الطبيعة ، لم تعتمد على الاخيلة وتداعي المعاني ، فان ترسم الخطى القديمة ظاهر متعدد .. وهناك عناية في البحث والتنقيب .. وكانما هناك سارية هوائية .. تتلمس وتلتقط الفا من الممكنات .. ثم هذا المزيج من الثقافتين الاسلامية والغربية .. فهنا تياران مزدوجان استطاعا مزج قواهما المتضادة في حذق ومهارة ، والتغلغل فـــي ارض عميقة .. ثم اليك ما هو اجمل ــ فهنا شعر محلي مطبوع بـــروح الشعب ــ هو اسهام في « الفولكلور » المصري .. وهنا يسيطر الجو، وهنا حرارة معهودة ، واريج خاص يسري في كل الانسجة ، وسمـــاء معينة ، ونهر مفضل .. وليس هنا نقش زخرفي خارج عن نطاق المكان والزمان .. وليس هذا الشعر مصريا بصوره الريفية فحسب ، بـــل ايضا بالتوقيع المنغم ، وبالمثل والحكمة ، وبالعادات المترجمة الـــى فرنسية طازجة ــ ذات بساطة وجلاء ــ ما يجتذب اليه الروح الاجنبية» .

وكانت رحلات راسم في ربوع اوروبا واقامته للعمل في رومــه ومدريد وبراغ ــ محركا جديدا الهمه عددا من القصائد البديعة ــ فمن وحي اسبانيا كتب : كونشيتا ، مروحا القرطبية ، البهلوان ، السيرك ، صورا من الطريق ، من نساء اسبانيا ، ارتداد .. ومن براغ : ايـــن انت ، ٢٣ تحت الصفر ، امواج ، اوتيلي ، وداع ، في الكنيســـة ، الابتسامة الاخيرة ليسوع ..

ويميل احمد راسم ــ في جل قصائده الفرنسية ــ الى اساليب الشعر المرسل ، والشعر الحر ، والشعر المنثور .. ولم يتقيد كثيرا بالقوافي والنظم العمودي .. وخرج بعض قصائده فـــي شكل مقالات وقصص شعرية ، تتقطع سطورها وترتبط بوحدة المعنى .. وتتجــه دائما الى الابتكار في الفكرة والاسلوب ..

وشعره ــ من وجهة عامة ــ مشحون بعاطفة متوثبة ، وخيـــال لطيف لايشتط ولا يجمح، ولا يغوص في الابهام والغموض .. وسخريته دعابة رقيقة .. وغزله لا يسف ولا يتماجن .. وصوره : الانسان في دروب حياته وعمله وكفاحه ، في الطريق والدكان والمعبـــد والبيت والملهى وفي الحقل والصحراء .. واينما كان ..

ولهذا فشعره الفرنسي اذا ما ترجم الى العربية لا يفقد موسيقيته ومعناه ..

« .. يقول الكاتب الفرنسي كلود افلين في كتابه : « النزهـــة المصرية » (٤) ان مطرانا شاعر مصري ادخل في العربية اسلوبا وافكارا غربية ، كما ان احمد راسم ادخل في الفرنسية طائفة من التشبيهات والاستعارات والكنايات ــ بل لقد استحدث اسلوبا جديدا في الادب الفرنسي .. اما اسلوبه الادبي فهو اسلوب الشاعر الذي يهز القلب والعقل معا . فهو لا يتحدث الى العاطفة بخياله والهاماته ، ويتحدث الى العقل بمنحى تفكيره الخاص ، وبمنطقه القائم على الاستنتاج .. وقد قدم طه حسين كتابه عن المتنبي الى احمد راسم بهذه الكلمـــة : هذا الكتاب اقدمه ذكرى لشعركم الممتاز » .

الاسكندرية　　　　نقولا يوسف

بوح

أيا همسة الصبح فوق الندى
تغنـي الشروق اغاني المـدى
وتنثر عطر زهور الحيـــاة
كحب عميق كوقـع الصـدى
فتشدو للحن العطـاء المثير
وتهفو لجرس بهـي بـدا
وتحضـر لمـح النهـار لحسن
لسحر جميل المعانـي شـدا
ايا همسة الصبح هام خيالـي
ولم تمض ذكرى نهاري سدى

سورية　　　　محمد خالد رمضان

في مسالك الدروب

بقلم محمد سليم رشدان

* * *

الصواب لا يخفى

رأيته ساهما حائرا كأنما هويته في صحراء لا بداية لها ولا نهاية ، وقد اغلقت في وجهه المسالك ، وسدت بين يديه مسارب النجاة ، فقلت له : ماذا بك ؟ ان وجهك يوشك ان يكون صفحة قاتمة ، يقرأ فيها من يشاهدك آلام الناس جميعا ، ومصائب الدهر كاملة غير منقوصة ، فماذا نزل بك .. اخبرني .

فقال : ومالي لا اكون كذلك وقد اضعت كل أمل ، وفقدت كل رجاء ، ولم يعد لي اي مطمع فيما يتطلع اليه الناس من مفاجآت ..

قلت : وكيف كان ذلك ؟ .

فقال : انه كان لي من الطموح ما لا حدود له ، وقد حملني على ان اضرب في آفاق الارض سعيا وراء الكسب، وانا اطمع ان اعود بمثل ما عاد به سواي من المغامرين الذين حالفهم النجاح والفوز ، فعادوا بالسعة والرخاء .

وتنقلت في مختلف الآفاق ، وكان حليفي انىما توجهت ان اجد الابواب موصدة ، على نحو يدعو الى العجب ، ويثير الدهشة ، فكأنما اعلن القدر في وجهي حربه الشعواء ، بل كأنما تواصى هؤلاء الذين اتصلت بهم جميعا بأن لا يفسحوا بين يدي مجالا ..

وعدت ــ يا اخي ــ ادراجي ، بعد ان اعيتني الحيلة ، ولم اترك طريقا الا سلكته وانا صفر اليدين من كل شيء ..

عدت لكي انزوي في عقر داري ، وقد خمد في نفسي كل نشاط ، وخبا فيها كل طموح فهل تريدني بعد ذلك كله ان افعل غير هذا ؟ ..

قلت : انك حر فيما تفعله ، وليس لي سلطان عليك، لكي احملك على ما ابتغي ولكني اريد ان اذكرك بحكمة مأثورة عن « تولستوي » يعمل فيها :

« ان الشيء المفزع حقا ليس هو الموت ، وانما هو الحياة التي لا تصحبها آمال فتلك في عرف الناس حياة بينما هي في الحقيقة والواقع شر من الموت .. »

ذلك ما اذكرك به .. وبعدها ــ يا اعزك الله ــ لك ان تمضي في غلوائك الى ما لا نهاية ، ولك ــ ان شئت ــ كذلك ان تتريث في الامر ، فتنظر الى ما حولك ، لترى على مقربة منك ، وفي كل منحى تتجه اليه ، بوادر الامل وعلائم الاستبشار .

اجل .. لك ان تتخير احد السبيلين ، فتسلكه لا تتحاز عنه ، ولكن عليك ان تذكر ذلك قبل ان تفعل ذلك ، ان الصواب لا يخفى على ذي عينين ..

انه الشيطان

قال وهو ينظر الي نظرة التحدي والاستفزاز : من هو ذاك الذي لا يحبه احد ؟!

قلت : يا سبحان الله .. كأني بك قد تلبستك روح معلم ، فتوهمتني احد طلابك فجئت تختبرني لتحكم علي. اجل كأني بك هذا شأنك ، وانت تسألني متحديا مستثيرا، مثل سؤالك هذا ، وما ادري كيف ادلك على ذاك الذي لا يحبه احد !! .. الا ترى معي انه الشيطان ، وليس احد عداه ؟! ..

وابتسم صاحبي ، وتبدت في وجهه بشائر الغبطة، وكأنما هو يمسك بي متلبسا بجريمة (الغش) في الامتحان ، ثم جعل يهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال، وهو يقول : كلا .. كلا .. ليس هو الشيطان ، ان هذا تعبير عتيق ، ما ادري كيف يجري على لسانك !! .. لماذا لا تقول :

ان الذي لا يحبه احد ، هو ذاك المتعاظم ، الذي يسير في الطريق ، وهو يوشك ان لا يتسع له ، غرورا منه واختيالا ، ثم هو لا يرى الا نفسه ، يتحدث عنها ما اتسع له المجال فاذا لم يتسع هذا المجال بين يديه ، اوجده لنفسه اعتباطا وتحديا ، فاقتحم على كل متحدث، يسكته ويسفه رأيه ، ويعلو عليه بصوته الجهوري ليتشدق بالحديث عن نفسه وعن نفسه دون سواها ، وانه لا يفرغ من هذا الحديث ابدا . واما جلائل اعماله ، وامجاده التي لا نهاية لها ، فتلك التي لا يتسع لها حديثه مهما طال وتشعب ..

والويل كل الويل لمن يعترض على ذلك ، او يتساءل فيه عن بداية او نهاية . انه اذن يلبس من صفات الذم ما لا يحصيه عد ، ولا يحيط به حصر ، ولا يدخل في حسبان !!

واذا سأله سائل عن زيد او عبيد ..

واذا ما سأله سائل عن ذلك ، رأيته يفيض بالحديث كالموج الصاخب ليبين من معايبه ما يذهل سائله ويثير دهشته .

ذاك ــ يا اعزك الله ــ هو الذي لا يحبه احد ، لانه لا يحب احدا غير نفسه ولا يجد في الناس رجلا يستحق ان يذكر بخير عداه ، بل لا يجد فيهم رجلا ، لا يلصق به عيبا ، او يبتكر له علة .. !!

قلت : ومثل هذا جدير ان تسميه بين الناس شيطانا ، ما دام لا يجد في من يعاشرهم موضعا للخير . وهل كان (شياطين العرب) الا اناسا اشرارا ؟

بين الامس واليوم

بالامس كنت وردة حمراء
ضاحكة في ربوة النقاء
يهفو اليك الحب والرجاء
والامل البريء والضياء
وكنت تحت زرقة السماء
في أول الربيـع
مورد وجد دائم الصفاء
للطـير والانسام والميـاه
وللحيــاه !
بالامس كنت في فم النجوم
أغنية تجاوب الاقمـار
تفتح ألف باب مستحيل
في ظلمـات الليـل
كنت شراعـا ابيضا جميل
يمخر في بحيرة اللحون
وحولك الفتـون

يعطر الشواطىء الزرقاء
والقصب الحالم بالفراش والسكون
واليوم بعد ان مضت عشرون
سود ، وشاهت الظنـون
أراك في ســـجون
يقيننا المشوه الحزين
ذابلة ياكـل قلبـك الذبـاب
ضائعـة العينـين
في لجـج السراب
تدوس تاجك المذهب القديم
قوافل المسافريـن
كانما لم تكن الدروب
حالية تغري بأن يموت
فيها السعيد والمعذب الكئيب

دمشق — رضوان عقل

فقال وكأنما ارضاه تأويلي : ان كنت اردت ذلـك فأنت لم تخطيء ..

اليـوم المنتظـر ..

يا اخي القارىء ، انها اسماء غريبة من نوع ما الفنا مـن مثله ، ولا تردد على الشفاه بيننا ، فتخيل ـ ان شئت ـ متحدثا يقول لك : « عميروش .. زيغود .. ديدوش .. المهيدي » !!

تخيل متحدثا يلقى في سمعك مثل هذه الاسماء ، اتراك تعرف شيئا عنها .. ؟ أتراك تجد في ذهنك مـا يذكرك بحادثة من التاريخ ، او مشهد من المشاهـد ، او خبر من الاخبـار ؟! اجل .. انك لا تذكر شيئا من ذلك ، ومن اين لك ان تذكره ؟ انها كلام جديد عليك ، وانهـا اسماء لم تطرق سمعك من غير شك .. !!

ولكنك لو كنت هناك .. لو كنت في الجزائر .. في الريف .. في القرية .. في الجبل .. في المدينة .. في اي مكان من التخوم الى التخوم ، ومن شاطىء البحر الى اعماق الصحراء . لو كنت هناك في الجزائر، لسمعت عن هذه الاسماء العجب العجاب ، ولسمعته من الصغير والكبير ، ولسمعته من القاصي والداني ، ولسمعته مـن الرجل والمراة .. انهم بعض ابطال الجزائر ، الذيـن دوخوا المستعمر ، واذاقوه من الاهوال ضروبا ، ولـم يستكينوا ولم يذلوا ، ولم يولوا الادبار حتى تساقطـوا تباعا وهم يحمدون الله على نعمة الشهادة .

بذلك حدثني قـادم مـن هنـاك ، وكـان شديد الاعجاب بما رآه عندهم من اكبارهم للشهداء ، انهم هناك هم الابطال ، ولا بطولة لاحد سواهم ، وان من عداهـم زاملوهم في الطريق ، ولكنهم لم يصلوا الغاية التـي وصلوا اليهـا ..

ان الذين حرروا الجزائر هم اولئك الابطال ، وان ما سوف يخطه التاريخ من امجاد الجزائر سوف يكـون عنوانه المشرق ، ما دونوه هم بدمائهم الطاهرة ، وارواحهم الزكيـة ، وان ابرز ما في كل كتاب عنوانه .

وان فردوسنا المغتصب في فلسطين ، لن يعيـده الى اصحابه غير ابطال مغامرين مثل اولئك الابطـال ، وسوف يكون لهم هناك مكان فسيح يترقبهم في صفحات التاريخ ، ليتسع فيه المدى ليسطر امجادهم وبطولاتهـم المرتقبة ، يمهد لنا طريق العودة ، ويرد المشردين الـى وطنهم المغتصب ..

فهل يبعد عنا كثيرا ذلك اليوم الذي نطالعهم فيه ، فتبهرنا منهم جلائل الاعمال ؟ ترى هل يمتد بنا الزمـان كثيرا .. وهل يطول بنا الانتظار ؟!

عمان ـ الاردن — محمد سليم رشدان

القلوع الشاردة

عينـاي تبحران لا شراع
ورحلتي كم الف عام في ضياع
وزورقي ، ضاقت به الشواطيء السوداء
تغوله مخالب الفناء
حيث خطى المنون
تسف في جنون ...

من ذلك الربـان
مدثرا بالسهد والاحزان
شابت على قيثاره الاغان
يستنزف التجوال والرحيل
بقيـة مـن عمره الثقيل
معانقا في لهف مرنح الشراع
عناق مثقل الذنوب
تعويذة المصلوب
في حلبة النزاع ! ..

وهكذا ، عيناي تبحران
والشوق يا للشوق كالبركان
يمد جسرا رائع البنيان
ما اطول الجسور عنده ، ما اقصر الجسور
الخافق المجنون يستخف بالجسور
أحسه في ثورة يطير
يمزق الضلوع
عاصفة ما اضعف القلوع !
السنة من اللهيب في اشتعال
شيئا غريبا لا يحده خيال
وكيف لي ، خمرية الخالين
يا ثرثارة اللفتات ـ
ان انقل الخفقـات
بالحبر والقلم
فتولد الكلمات
باهتة بلا حياة !! ..

في لجة السعير
تفنى بقايا احرفي ، في لجة السعير
وقلبـي الاسـير
يقتات بالقصائد الجوفاء
في عالم الخمور والاماء

احلامه احلام من يمشي بلا اقدام
لساحة الاعدام
تمعكـت في دربه الفشوم
رقط الثعابين
اشـداق تنـين
تزفر بالسموم ..

وفي المدى البعيد انشر القلوع
الوانها الاشواق والدموع
لدارنا الحبيبة تزينها الحسان
يغزلن اغنيـات
بسيطة المعـان
وتحت اقدام النوافذ المنيره
متكأ الورود والطنافس الوثيره
تنحل عقدة الظلام
وترقص الانوار في اختصام
ويصفر الصفار في اصفاء ناسكين
والجد ذاك البشر الجني في حنان
يزبد او يرعد او يهدأ كالفصول
بصوته الفارغ كالطبول
الشيخ صدق ما يقول
الشيخ قد صدق ما يقول
حكاية طليقة العنان
يمزق السعـال
قلوعها الواهية الحبال ..

عينـاي تبحران ..
تتوجان طلعة الاثير ترقبان
الموجة العذراء فلذة الصبير
تظفر شعرها المذهب الوثير
انامـل السـحر
حاملة عوليس عائدا جناح عنفوان
وقلبه مجرتـا أغـان
ووجهـه بحيرة امواجها جمان
بشراك يا زمان
بشراك يا صديقتي حنان
الفجر اقحوان
على دروب المجد والنضال والطعان

لندن

سامي حداد

ليس في وسع احد ان يعرف مصير عربات القمامة التي تطوف في اول النهار شوارع احدى ضواحي القاهرة . قلة قليلة من الناس يعرفون بالضبط هذا المصير ، حيث ينتهي تطوافها في أقصى المدينة عند الخط الفاصل بين الحضر بصخبه وضجيجه والريف بمفاتنه وهدوئه. ونادرا ما يدور في خلد المرء سؤال عن مصير القمامة ، واذا سئلوا عن ذلك يقولون ان هناك استفادة ما منها ولو انهم لا يتعرفون في الغالب على نوع هذه الاستفادة وكيفيتها .

لكن القمامة تشغل اهتمام افراد قلائل ، ويعدونها مصدر رزقهم ، ففي المستودع ينتظر خمسة افراد — وان شئت الدقة ستة افراد ، اذا ادخلنا المعلم ابو دومة في زمرتهم — .. ينتظرون وصول الطابور اليومي في مطلع النهار حيث يبدأ عملهم وهو فرز الاوراق والخرق وقطع الزجاج المتكسرة وفصل كل نوع على حدة ، واعدام الباقي .. وما أسهل التخلص من النفايات المتبقية .

والمستودع عبارة عن ارض خلاء مسورة بخشب قديم ، وبه ماكينة تقوم بتخليص النفايات المستغلة من الاتربة ، ولو ان الماكينة تصر على اثارة الاتربة والغبار مما يجعل الوقوف في المستودع امرا بالغ الصعوبة .. فالغبار يزكم الانوف ، علاوة على كونه مرتعا خصبا لمرض ذات الرئة . يتحمل عمال المستودع هذا الجو الخانق ، وهم وحدهم القادرون على المكث داخل المستودع طول النهار دون ان يشكوا او يتوجعوا .

يقف حامد السكران امام الماكينة ، وهو وحده المسؤول عن تشغيلها . وقد لقبوه بالسكران لانه غالبا ما يكون في حالة غير طبيعية، ولو انه لم يتعاط الخمر لضيق ذات اليد . وهو في الثلاثين من عمره ، يرتدي سروالا ليس من الممكن التعرف على لونه الاصلي بسبب الاتربة العالقة به ، والتي تراكمت فوق بعضها وكونت لونا آخر قاتما. ويصر حامد على ارتداء قميص مشجر، كما يصر على ان يظل الزرار العلوي مفتوحا حتى يسمح لشعيرات صدره الكثيفة ان تتعرض للهواء ، ولو انه غير نقي . وهو مفتول العضل ويعد اقواهم جسديا ، الا ان حالة الهياج التي يكون عليها احيانا تجعل قوته الجسدية بلا معنى او اهمية ، كما انه لا يحاول استغلال هذه القوة في شيء ، او هو لم يدر في خلده مثل هذا الامر .

تساعده « سكينة » في تشغيل الماكينة ، فهي تقوم بوضع القمامة — خامة الماكينة — في فتحة



بقلم حسني سيد لبيب

مخروطية اعلى الماكينة . وسكينة هي الفتاة الوحيدة في هذا المستودع ، ومفاتن جسدها لا تخفى على احد ، ولم يحدث ان طمع احدهم فيها ، الا انهم لا يمنعون شفاههم من المصمصة ، وصدورهم من التأوه . كما انه أصبح معروفا لدى الجميع ان فاروق النمر هو عريسها المنتظر . وقد أشيع ذلك منذ سنوات ولم يتم هذا الزواج حتى الان ، كما انهم لم يحاولوا ان يستفسروا عن السبب .. فهم غالبا يتناسون ان الزواج لم يتم ، ويعدون



فاروق زوجا لها . وهذا الزوج المتعارف عليه شاب هادىء ، ودائما يستنفر هذا العمل ويمقته ، وكثيرا ما تمرد عليه وتغيب ، لكنه يرجع ثانية لما يجد ان المستودع هو المصدر الوحيد لقوته اليومي . صادفت سكينة هوى في فؤاده ، وصارت أملا يداعب خياله ، ولما خشي على الامل اشاع بينهم انه سيتزوجها . فاستقبلوا الخبر بهدوء .. وحين سألوه عن موعد الزواج ، اكد لهم انه سيتم في القريب وقتما يتدبر المهر المناسب . اصبح المهر مشكلة لا يقدر على حلها ، فالى الان لم يتدبر منه قرشا واحدا . عرف المعلم ابو دومة هذه العلاقة من النمر نفسه ، لكنه لم يعرها اهتمامه .

اما عليوة ، فهو رجل صاحب مزاج كما يصف نفسه . وله نظرة لا انسانية تسف اسفافا مشينا ، وكأن عينيه جمرتا نار متوهجتان . شفتاه مكتنزتان ، وله شارب كث يكمل الصورة الكلبية لوجهه ، علاوة على فكيه البارزين .

واخيرا ، شحاتة ... ودائما يجيء ترتيبه في آخر الدور ، وهو لا يحنق على هذا الوضع ، ولا يطمع في غيره ، لانه لا يفقه هذا او ذاك ، او يعي واقعه تماما .. له عالم خاص يبتنيه في خياله ، كثير الضحك ، نادر الاكتئاب ، صاحب القول ، هادىء الفعل .. ويعتبره العمال شخصية هزلية تسري عن أفئدتهم مشاق العمل ، وقيل ان المعلم وجده راقدا بجوار قضبان السكة الحديدية فالحقه بالمستودع كعامل يرضى بالقليل . ولم يكن من الهين تنويره بما يجب ان يفعل ، وكثيرا ما صفعه السكران على وجهه ، وقذفه عليوة بشتائم مخزية تتعداه الى ابويه واجداده الافاقين.

لكن الامر يزداد تعقيدا حين يشك حامد في تأثره بصفعاته القوية ، ويشك عليوة في تأثره بشتائمه

القبيحة ، فيزيدهما هـذا الشك صفعا وشتما ، وتزداد ضراوتهما . ثم الفا هـذا الوضع ، وشجعه بالطبع المعلم ابـو دومة ، وباتـا يعتبرانه ــ اي شحاتة ــ مصـدر قوة لهما، فهما في لحظات سرورهما يتسليان بضربـه وشتمـه ، وفـي لحظات غضبهما يفرجان عن كربهما بالضرب والشتم أيضا .

☆

زمهرير اغسطس يغيـر مـن طباعهم ، فيكونـون اكثـر ضراوة وشراسة ، واحيانا ينقلبون قططـا طيعة تتكلم في همس غير مسموع ، ويبدو على وجوههم الاعياء والسقم. آثار الجدري على وجه عليوة الكلبي تعطي للكآبة معنى آخرا يصيب المرء بالغثيان . وهو في قسوته وضراوته اكثر ملاءمة مع خلقته الناشزة ، اما حين ينتابه الهـم والكآبة ، فانـه يتحول الى انسان هزيل مستكين .

لا شيء يستثير العمال ، فالجـو الخانق مع الاتربة المنتشرة فيه علـى الدوام تجعل العمل نوعا من البطولة. حتى تصرفات شحاتة الماجنة تعجز عن جذب الانتباه . وسكينة بعينيها السوداوين النجلاويـن لا تبث في النفوس امـلا او تبعـث في الروح همة ، كما ان اردافها المكتنزة والتي تبرز في وضوح عندمـا تنحنـي او تقعـد القرفصـاء ، لا تستثيـر شهواتهم . لم يعبأ عليوة بشيء مما حوله ، ارتكن على الجدار الخشبـي وانهمك في لف سيجارة ، ثم أخـذ يدخنها في هدوء واستكانة ، قـال له حامـد :

ــ يحلو المزاج الان ، في هـذه النار المحرقة ! ..

اجابه عليوة بنظرة شزراء .

ويبدو ان شحاتة هـو اسعدهم حالا ، فقد انسل من بينهم ومشـى الى الترعة التي لا تبعد كثيرا عـن المستودع . يلتذ شحاتة بسخريـة النسوة اللاتي ينظفن الملابس ويجلون المواعين . يضحك في مجون حتـى يكاد يشرق ، والنسوة يجهلن تماما سبب انسجامه وانبساط اريحيته ، فهن يوبخنه ويستهزئن منه ، وكثيرا ما تتطاول ايديهن فيعملن على ايذائه بينا هو يستكين لهن ولا تند عنـه دمعة واحدة ، او صرخة ضيق ، او حتى كلمة استنكار واحدة .. وانما يجابه افعالهن مثلما يجابه الحيـاة برمتها ، بالضحك المتواصل . وحين يضحك ، يصر علىافتراش الارض، ربما تواضعا ، أو تحقيرا لنفـس الانسان وما تبديه من مشاعر فجة متهرئة ، أو ربما يجد في الضحـك عبادة يتقرب بها الى الناس .وليس مهما التعليل ، لانه لن يؤدي الـى نتيجة مرضية . كما انه من السخف ان تكون تصرفاته مثار جدل ونقاش، فصاحبها نفسـه لا يوليها أدنـى اهتمام .

يستحم شحاتة في الترعة بكامل ملابسه ، وهي ليست بكثيرة كما يتراءى للذهن. فهو يتجلبب بجلباب له فتحتان ، الاولى للصدر وتمتد من أعلى الى اسفل صدره ، والثانية لجيب غير موجود . والجلباب هـو كل ما يمتلكه من ملابس . واحيانا يتحلل منه بعضا مـن الوقت ، فـلا الرجال يعيرون ذلك اهتمامـا ، ولا النساء يتحرجن من جسده العريان، اما الاطفال فيمنعون النظـر فيـه كدمية لا تبعث البهجة في نفوسهم ، وان كانت تستميلهم الى التسـاؤل والحيرة والغموض .

يقف المعلم ابو دومةبجلباب ناصع البياض ، يمسك طرفه بيده في زهو وشموخ . انطلق صوته الجهوري :

ــ أهذا شغل؟ لا نشاط، ولاهمة. أهذه قعدة يا عليوة ، يـا ابو فراج قطران ؟ . واين شحاتة ؟.

ردت سكينة : ذهب الى الترعة. يستحم ، ويغسل للنسوان الملابس والمواعين . والنبي يا معلم باين عليه فاهم حاجات . لكنه يتلاءم امامنا ، يتهيأ لي انه ناصح .

قال السكران : ماذا تقصدين ؟. والله يا معلم ما يساوي شيئا . انت رأفت بحاله والثواب عند اللـه . انما يعني شحاتة من غـير عقل ولا كياسة ، ولا حتى يفهم حاجـة . أليس كذلك يا معلم ؟

جال بعينيه فـي الوجوه وقـال بنبرة قويـة :

ــ أليس كذلك يا جماعة ؟ .

شد عليوة النفس الاخير من عقب السيجارة ثم ألقاه علـى الارض ، وأهال عليه التراب .. وقال :

ــ معقول يا سكران .

ولما احس المعلم ان الموقف كـاد يفلت من زمامه ويتحول الى سفسطة قد تضر بهيبته ، عـاد يزعـق من جديـد :

ــ أنا احب الشغل الجاد . مطلوب منكم عشرة اكياس ورق في آخـر اليـوم .

رفع فاروق صوته محتجا :

ــ هذا كثير يا معلم .

وهمهم الباقون بالعبارة ذاتها .

وكانت الفرصةللمعلم كي يثبت قوته ويؤكد سيطرته ، فرفع عقيرته في انفعال :

ــ انـا قلت كلمـة ، وضروري تمشي .

فصدعوا لكلمته ولم يعترضاحد، ولو ان عليوة ساخط ومتبرم ، لكنه لم يتفوه بشيء .

اطمأن المعلم الى ان كلمته ستنفذ، فهدأت ثورته ، وخرج . لكنه لـم يكن راضيا ، فقد تصدع رأسه مـن هذا الحر اللافح ، ومن زعيقه الذي كان في غير موضعه . هرول الـى المقهى التي تجابه المستودع ، وجلس في الظل على كرسي مـن القش ، وطلب « البوري » ، فهو وحـده الكفيل باصلاح كل شيء .

تقلب سكينـة في الاوراق بيـد متعبة ، والقيظ يلهـب جسمها بسياط من نار ، فينتابهـا اعيـاء وملل . تحاول ان تتحامل . صـورة اكوام القمامة امامها لا تبعث علـى الارتياح . بدات تضيق من منظرهـا

الكئيب . حاولت ان تغمض عينيها وتحلم باشياء اخرى جميلة ، بينا يداها تعبثان في القمامة . ولما تعبت ، فتحت عينيها .. لمحت ورقة خضراء . حملقت فيها جيدا .. انها جنيه !

عم الفرح كيانها كله ، وندت عنها صيحات محمومة :

— جنيه .. جنيه .. جنيه ..

واخذت تقلب الورقة الخضراء وتطوف بها . ترك الجميع عملهم والتفوا حولها . حملق عليوة في الورقة ، ولما تأكد منها قبض بيده الغليظة على معصمها . لكمه فاروق، فانهارت قواه ، وتخاذل عما كان ينتويه ، وقال في صوت واهن :

— نقسم الجنيه .. نحن خمسة، كل واحد يخصه ريالا .

واردف السكران موافقا :

— وطبعا شحاتة لن يأخذ مليما واحدا .

صرخت سكينة :

— انا عثرت عليه ، انه لي ..

رماها فاروق بنظرة عتاب ، وقال:

— نقسمه مناصفة انا وانت ..

ووافقت سكينة ، بينا السكران وعليوة يتميزان غيظا ، وكان الموقف دقيقا بالنسبة لهما . أتعثر سكينة على جنيه بالكامل ولا يخصهما شيئا ؟ . حامد يهز عليوة من كتفيه :

— اتسكت ؟ .. امعقول هذا ؟ .. نخرج من المولد بلا حمص . وانت يا فاروق ، ترضى المناصفة ، ونحن لا يخصنا شيء .. يعني لاجل انك رجلها ، توافق على اعطائك نصفه .. نحن هنا عمال ، زملاء .. نعمل ونتعب .. وأي رزق ، هو رازقنا كلنا ..

ارتكن عليوة الى الجدار الخشبي وقال في حزم :

— انا يخصني ريال .. والا سأبلغ المعلم .

واخرج سيجارة . فرماه السكران بنظرة مؤنبة ثم قال في ضيق :

— وانت فاكر ان المعلم سيعطيك ريالا ؟ .

ولما سمع فاروق كلمة « المعلم » انتفض في ذعر وصاح :

— لا .. المعلم يأخذ الجنيه ويضحك علينا . ولن يخصنا مليم واحد .. نقسمه بيننا احسن .

شدت سكينة ذراعه ، وقالت :

— وانت ايضا يا فاروق ، يبقى لن يخصك شيء .. الجنيه ملكي .. انا التي عثرت عليه .. كان من الممكن الا آخذ بالي .

وخبأت الجنيه في صدرها المكتنز . صعق الجميع ، تبادلوا النظرات وهم يتميزون غيظا . ماذا يفعلون !؟ . سؤال دار في خاطرهم .. عليوة لا يفكر في الامر بجدية واتزان ، كان ينفث الدخان في راحة كأن الريال الذي يحلم به قد صار في جيبه . فهو يعتبر هذا الامر بسيطا ، ولا يحتاج الى صراع يصدع رأسه ويرهق بدنه .. يكفيه هذا الغيظ .

اما سكينة ، فقد جلست القرفصاء ، واخذت تغني في فرح وغبطة . هي وحدها التي تملك الجنيه . معها ثروة لا تقدر اذا ما قارنتها بأجرها اليومي . كم تأخذ في اليوم ؟ .. نصف ريال .. واحيانا يماطل المعلم في هذا الاجر، أو يؤجل دفعه ، او يخصم منه . معها جنيه كامل . لكن ماذا تفعل به ؟ . طاف بخاطرها هذا السؤال . واقترحت ان تشتري به اشياء تلزمها ، لكنها خافت على الجنيه وخشيت من بعثرته في توافه لم تكن تشتريها . وفضلت ان تحتفظ به لوقت الشدة . لا بد ان تضعه في مكان امين لا تتطاول اليه ايدي أحد من اسرتها .

افاقت سكينة من شرودها على صوت عليوة يجلجل :

— عندي فكرة ، شحاتة ينتزع الجنيه من صدرها .

صاح فاروق في ذعر :

— شحاتة ! .. يمد يده في صدر سكينة ؟! . لا .. لا .. لا .. لا .. اصبروا قليلا ، ربما توافق على التقسيم .

رفضت سكينة ، واصرت على الرفض ..

— الجنيه من نصيبي . اشتكوني للنيابة ! .

توسل اليها فاروق :

— يا سكينة ، لا تكوني عنيدة .

همس عليوة في اذن فاروق ، بينا يده تدفن عقب السيجارة في التراب :

— يستطيع شحاته انتزاعه من صدرها . لماذا تخشاه ؟. انه عبيط، ولا يفهم الامور اياها .

لم يعقب فاروق بشيء، فاعتبروا سكوته دليلا على الموافقة . قدم شحاتة بخطوات مضطربة . كان يزحم ما حوله بالغبار وهمهماته البدائية . لقد حضر في الوقت المناسب .

لوى عليوة ذراعيها بشدة وقسوة. فتلوت كالثعبان بين يديه . حاولت ان تفك الاسار ، فأعيتها الحيل . احست بانفاسه الممزوجة برائحة التبغ تنفذ من خلل شعرها الاسود الفاحم ، وتصيب رأسها بالدوار . أثارت بقدميها التراب ، وجلجلت بصوتها ، لكن فاروق عاجلها بيده النحيلة فأخرس صوتها. نظرت اليه في حنق . مات الحب في لحظة ، وانفجر بركان من الغضب . نظرت اليه في غضب وحقد ، فلم تكن تتوقع منه ان ينقلب فجأة الى وحش همجي . ونظر اليها فاروق كامرأة عاصية ينبغي عليه تقويمها، فلا يصح ان تعصى امر الجماعة التي تنتمي اليهم .

يهمس السكران في اذن شحاتة، وهي الطريقة الوحيدة التي يفهم بها شحاتة انه المقصودبالكلام. ضحكات شحاتة المتواصلة جعلتهم يجزمون بأنه لم يفهم شيئا .

تتأذى سكينة من رؤيته . انه

تجربـة

واغضي خشوعا وتهمي دموعي … واجثو بذل ويهوي جمـودي
واغرق في مستفيض الخيال … احاسيس صدر غريب فريـد
وارخي العنان للهفي الحبيس … يعب افاويـق نبـع بعيـد
واغفو على اغنيات العـذارى … تسلسل في همسات وريـدي
فأسبح في صوفـي الشعور … واعتق روحي بوهمي العتيـد
فقد استعيد بذلـك نفسـي … وقد استنير بفـك قيـودي

ألملم حيرتـي بقايـا جمـوح … اضر بفكري وادنى وجـودي
واسعى امزق ستر الضلال … فأعدو وراء السراب الفقيـد
سـراب يضيء بفور ضلوعـي … يهدهد روحي بغـدر مريـد

دمشق … سلافة العامري

يبعث على الغثيان . تجاهد كـي تتحامل ، فتئن في صمت . لكـن املا ما يداعبها في فـك الحصار ، فتتلوى وتقاوم .. تضايق عليـوة لهذا الابطاء ، فصاح :

ــ اسرعوا ، لا يمكن ان اتحمـل هذا الوضع طويلا .

بدا شحاتة يفهم بعد طول عناء . اقترب من سكينة . لكنه جمـد ، وبدا كأنه نسي ما قيل له . صرخت سكينة وبكت . لكزت عليوة فـي صدره لكنه لم يتزحزح ، ولم يلن .

مـد شحاتة يـده القـذرة في صدرها ، بـدا عليـه الانبسـاط والاريحية ، لعق شفتيه بلسانه في تلذذ ، واحمرت اذناه . يده تتحسس الصدر البكر ، صارت يده كتلة من النار تحرق صدرها . زعق فاروق :

ــ الجنيه .. الجنيه ..

أفاق على زعيقه ، واطاع عـن خـوف .

اخيرا ، ظهر الجنيـه الاخضر . ابتسم شحاتة وجلجلت ضحكاته ، وبدا عليه الانبساط . الجنيه مرفوع في يده كتحفة نـادرة . تمرغـت سكينة في التراب باكية ثائرة . انها لا تبكي على الجنيه الذي انتزعـوه من صدرها، وانما على كرامتها التي اهينت ، صرخت مولولة :

ــ شحاتة ضحـك عليكـم ! .. شحاتة ضحك عليكم ! ..

لم يفهم احد ما تعنيه ، واعتقدوا انه هذيان محموم . صرفوا انتباههم عنها ، فقد حدث ما هو اهم من ذلك .. لقد جرى شحاتة وهو يهلـل ويصيح ، رافعا الجنيه فـي يـده ، كأنه اكتشف كنزا واصبح ثريا . هرول السكران في اثره ، وجمد الباقون مذهولين . كان التفكير في هرب شحاتة مهمة شاقة وعسيرة . تذكروا ما قالته عن شحاتة . اقترب منها فاروق فنهرته ، ولفظته لفظ النواة ..

ــ كل شيء انتهى يا فاروق .

كلماتها قاسية ومريرة . حـاول ان يدافع عن نفسـه ويبرر لها موقفه، لكن السكران فاجأهم بما هو أقسى وأمر :

ــ شحاتة اعطى الجنيه للمعلم .

تناقلت السنتهم كلمة « المعلم » وهم في ذهول ودهشة . قال عليوة في اكتآب :

ــ فعلا ، ضحك علينا شحاتة ، كما قالت سكينة .

صرخت سكينة :

ــ لا .. لا ..

همت بتصحيح ما تعنيه ، لكنها ألجمت النطق حين حملقت عيناها في وجوههم . أزعجها وجه عليـوة الكئيب واقلقتها نظرته الكلبية . ان الجدري الذي يحفر وجهه يبعث على الغثيان . وحين نظرت الى السكران أفزعتها عيناه الجاحظتين . وتناهى اليها صوته وهو يوبخ شحاتة ويلعن يوم مولده ، مؤكدا انه «ابن حرام». وارتجفت في خوف حين نظرت الى فـاروق .. كلهـم لا يبعثون علـى الارتياح . نهضت ونفضت التراب عـن ثوبها الكالح . مشت في تؤدة واناة لا تكاد تحس حزنهم الدفـين وآمالهم المقبورة ، وكأنها من عالـم غير عالمهم .. كأنها مخلوق غريـب عنهم لا يفهمهم . تبادلـوا النظرات في حيرة . توقعوا ان يسمعوا منها كلمات تأنيب ، لكن صمتها حفزهـم على الاستفسار عما تعنيه بما قالته اخيرا . سألها الثلاثة ، ولم يتلـق واحد منهم جوابا . آثرت ان تدفن احاسيسها . لا يمكن ان تبوح لهـم بشيء ، فلن يصدقها احد ، حتـى فاروق لن يصدقها . بدا الجميـع بالنسبة لها كأناس غرباء ، أو بدت هـي كانسان غريـب في عالم غير مفهوم ! .

القاهرة … حسني سيد لبيب



١ ـ المستشرقــــون

كتاب في ثلاث مجلدات ضخام ـ تاليف نجيب العقيقي ـ ١٤١٥ صفحة ـ من الحجم الكبير ـ طبع دار المعارف بمصر .

يكبر المرء ، وقد يكبر عمله ، ويجسم ، حتى يبين كالبناء الشاهـق ، فيعجب المتامل كيف استطاع هذا الانسان ان ينهض بعمل شاق رجيج. وهو وحده فيما تعجز عنه العصبة اولو القوة .

وان عمل الاستاذ الكبير نجيب العقيقي في تأليفه هذا الضخم ، يشبه الاثار العاديات التي تجثم علىالارض لتكاثرالزمن وتفاخر الاجيال.

لقد ألف كتابه الاول واسمه « المستشرقون » (١) سـنة ١٩٤٧ فجمع فيه اخبارا وقام بدراسات لطائفة مختارة من المستشرقين ، لكنه وجد غليله في العلم وفي البحث والدرس ما زال ظامئا فصبر سـنين طوالا يمتاح من نبع التنقيب ويصابر الايام والليالي حتى طلـع على العالم العربي والغربي بكتابه الجديد ، في أجزاء ثلاثة كبرى مليئـة بالجهد ، تكاد الصفحات تتنفس الصعداء من طول ما عكف عليها المؤلف النابغة الاستاذ العقيقي بالاكباب والتحبير .

ولقد رحت أشبه عمله هذا الجاهد بعمل المعلمات والموسوعات . فكتبه هذه الثلاثة موسوعة استشراقية رتبها على الحروف الابجديـة وقسمها الى معاشر وسير وجعلها شراذم وأصلابا فالمستشرقون الالمـان نجدهم في معتكف خاص ، والسويديون في صفحات موقوفة عليهم ، والفرنسيون في مناح متواصلة من التتبع والذكر .

وكان من العسير علي ان اتناول كل جزء بالتحليـل والتدليـل وبالتعريف والتصنيف فقد كفيت قرائي وقارئاتي في « الاديب » الاغر مؤونة التطويل ، وبحسبي ان ادلف اليهم بالكلام على الجزء الثالـث من هذا العمل الكبير ، فان فيه اشعاعا على كل ما ذكر ضمنه وقبله ، اذ احتوى الفهارس العلمية الشافية في الاعلام الغربية والشرقية بوضع عام . ثم فهارس الفصول والكتب ومراجع المؤلفين والاعراض وختم هذه الفهارس بثبت مديد لاعلام المستشرقين ، فكان هذا الكتاب محتـوى التراث العربي والاسلامي في متابعته وتطوره وأثاره وفيما يترامى بـه على الثقافة الاغريقية القديمة واللاتينية الحديثة .

اما الفصول فقد احتوت على طرائف الاستشراق حسـب البـلاد والنواحي . واما الكتب فهي ما ذكر في اصلاب الكتاب كله ، ممـا يؤلف مكتبة برمتها . وناهيك عن الجهد بسائر هذه الفهارس الجامعة الوعيـة .

وكنت أتقصى الاخبار عن مستشرق لامع هو « جورج سينفلي رنس » فقد كتب عنه الاستاذ « كارل برنت » فصلا مكينا (٢) ذكر فيه نشـأة هذا المستشرق الدائب ودراسته وتحصيله الادبي والعلمي في تفصيل لضروب ثقافته ، ثم فيما كان له من وظائف وأعمال ، وما كابد مـن جهد في الحصول على مخطوطات نادرة والقيام بتصويرها ونشرهـا وتقصي مؤلفاته باوصافها وموضوعها وفيما نماه في الهيئات والجمعيات العلمية في الغرب وفي امريكا .

وظل يعاودني الاستقصاء للاستزادة فـي شأن المستشرق « رنس » حتى اصدر الاستاذ العقيقي مؤلفه هذا النادر فعببت فيه زيـادة ووجدت ريا فيما كتبه عن هذا المسشرق (٣) وبخاصة في مؤلفاته وكتبه .

ولقد عرف قرائي وقارئاتي في طويل مـا يكرمونني بالاطلاع عليه انني أوثر الكلام على خلطائي وأصدقائي وأتجانف عن الكتابة فـي أمور التهديم والتشهير وقد عشت في أدبي بانيا ولم أهدم لاحد كوخا حتى عرفني قرائي في الشرق وفي الغرب وفي أرجاء الهند وافريقيا ، فبنيت سمعتي في عالم الادب كما يبني النحل بيته ، ورحت أعجب لظاهرة معاصرة بلـي بها النقد ، فان شداة وبادئين يأخذون اول ما يأخذون به بوضـع المباضع في أجسام الادباء والمؤلفين ، وأهل المواهب يحسبون أنهـم يجرحونهم واذا بالناس يلتفتون اليهم كما يلتفتون لكل مخالف واغل يطلب الشهرة من اقرب السبل بالايذاء والتهديم .

هذه خاطرة تخصني مرت بي وأنا أكتب هذا المقال من أجل صديق العمر الاستاذ الكبير نجيب العقيقي أحد أركان الفكر والادارة بجامعة الدول العربية بالقاهرة .

لقد صفقنا باب منزله منذ شهرين حين كنت بمصر احاضر فـي معهد البحوث والدراسات العربية عـن أستاذي وصديقي « عبدالوهاب عزام في حياته وآثاره » (٤) .

واستفتحنا وفتحت لنا زوجته الفينوسية ، فتلقتني وقرينتـي بترحاب مبين وقالت بلهجتها المصرية المحببة :

ـ مش معقول .

فأجابها قرينها الاستاذ نجيب العقيقي :

ـ بلى انه لجـد معقـول .

وكم ارجو ان يتاح لي قلم ساكب فاتناول به اثار هذا الكاتـب الاديب الذي نماه لبنان الاشم وغالت به مصر وكاثرت ، فان له رواية كبرى سماها « برج بابل » وصف فيها هجرات اللبنانيين الى مصر منذ فاتحة هذا العصر وكيف كان شارع الفجالة وحي الضاهر موئلا لحوادث هذه الرواية . وان له في تآليفه كتابه « الادب المقارن » اصدره سنة ١٩٤٨ بطبعة المعارف بمصر وكان من المعاصرين السابقين الـى هـذا الموضوع الادبي الحديث .

كذلك اكتب لقرائي في « الاديب » الاغر وكأني احدثهم جالسـا قربهم اشعر بدفء المودة وجمال اللقاء .

٢ ـ مـــع الخالديـــن

تاليف سمير شيخاني ـ الطبعة الثانية منقحة ومزيدة ـ ٤٦٠ صفحة ـ من الحجم الكبير ـ منشورات دار السمير للطباعة والنشر ببيروت

قلت للصديق الاستاذ سمير شيخاني : انك لست تنسب لشيخ ولا لشيخين كما حسب غيري وأنا أجدك منتسبا الى مشايخ ، فالشيخة جمع الشيخ ، فلقبك بكسر الشين ، وقد قال الشاعر القديم :

وتضحك منـي شـيخة عبشمية　　كأن لـم تجد قبلـي أسيرا يمانيا

---

(١) طبع دار المعارف بمصر « في جزء واحـد ب ٢٤٠ صفحة من القطع الكبير . (٢) نشر في مجلة « المنهل » التي تصدر بجدة سنة ١٩٦٦ لصاحبها الاستاذ الكبير عبد القدوس الانصاري الذي يعد ركنا متينا في النهضة الفكرية ببلاده . (٣) ص ١٠٢١ ج ٣ . (٤) أصدرت هذا الكتاب منذ حـين مكتبة المعرفة بالقاهـرة باسم معهـد البحوث والدراسات العربية بجامعة الدول العربية في مصر .

وحقا ـ بلا مراء للصديق ولا محاباة للخليط ـ ان الاستاذالعبقري سمير شيخاني شخص عجيب ولو كان يجوز في مصداق العلم الاعتقاد بمزاج الجن للكتاب المتفوقين لجاز ان اقول ان سميرا يسكنه جني لعله هو القمقم والجني فيه . وقديما قيل عند العرب ان عبقر دار للجن تنسب اليها الخوارق والاعاجيب .

وكتاب الاستاذ شيخاني ((مع الخالدين)) سفر نفيس . وهذا الكتاب يدخل في سجلات التاريخ ويعد مصدرا ادبيا ومرجعا علميا لمعرفة نبذ طوال او قصار عن جهابذة الفكر البشري أدباء متفوقين وموسيقيين موهوبين وأهل ترحال وتجوال ، ضربوا في الارض وجابوا الآفاق ، وفيه عرض ودراسات لمخترعين ومكتشفين وسير شيقة لقادة وفاتحين ، اما الفلاسفة والمفكرون فقد زاد لهم المؤلف في كفة الموازين، وكذلك الشعراء ، لانه من قبيلهم ، ولو كان سياسيا او رساما ونحاتا لرحنا نجد في مؤلفه هذا الكبير مجالات لهؤلاء ، فيها بحبحة أكثر مما هي عنده من دقة الموازين للقسط .

وميزان الاستاذ سمير شيخاني في هذا الكتاب ، ميزان علمي ، ومنهجه في الدرس والبحث علمي ايضا على خلاف مما جرى عليه في مؤلفاته السابقة التي جهد فيها ان يمضي بالقارىء في نزهة مرحة وتسلية جميلة وفكاهة محببة تروى .

اما شخصيته في كتابه هذا فهي شخصية الجد ، وكانه لبس لباس الحاكم الغربي ، او الشرقي فيما جرى عليه المشارقة في العصر الحديث ، من لبوس الرداء الاسود وعلى رؤوسهم قبعة الحكم القاتمة وكانه في محكمة لعرض القضايا الفكرية والادبية والانسانية .

وعمله هذا كان خطيرا كعمل من يتقدم لمس سلك من الكهرباء ، او دخول في كهف افلاطون او الاستنارة بمصباح ديوجين في رابعة النهار، اذ من يجسر ان يعيش مع الخالدين او يعاشرهم ؟ ان الاصابع لتحترق لدن مس واحد منهم فانهم في تجاليدهم واكفانهم وفي اضرحتهم يشعون نورا عبقريا على الوجود . ومنذا الذي يستطيع ان يحيط علما بالخالدين الذين لم يكتب عليهم الفناء على الرغم من صحة العدم وفناء الوجود . لقد راح سارتر في كتاباته عن العدم المطلق يرمي البشرية في تأملات مخيفة ، فكأنه كان ينكر الخلود على الخالدين . واذا كان هذا مذهبه ، فما اتفه حياته هو . على انني اجده مسؤولا أمام الوجود ذاته ، لانه اراد انيلقي البشرية في سحيق من العدم وكان على الدوام مزريا في أفكاره . أفلم يشع في اعماق الانسانية المعاصرة قضية القلق . ثم الم يكشف عن أدواء المجتمع في كل مؤلفاته ، ولكنه لم يداو أحدا ولم يصف دواء . وكم أشبهه بجراح فتح الجثة وتركها غير مخيطة ، بل لعله خاط الجرح ، لكنه نسي مبضعا من المباضع تحت الجلد المخيط .

والمؤلف نفسه نحا منحى روح عدمية حين اثبت عبارة بيضاء ضمن مربع أسود في اول كتابه للشاعر الاميركي لونغفيلو اذ يذكر فيه :

((اننا عندما نغادر هذه الحياة نترك وراءنا أثار خطانا على رمال الزمان)) .

وناهيك بما يبقى من اثار الاقدام على الرمال ، وقد سبق المؤلف النابغ شاعر العباقرة الاعظم أبو الطيب المتنبي حين انكر قضية الخلود فقال :

تتخلف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفناء فتتبع
أين الذي الهرمان من بنيانه ما يومه ما قومه ما المصرع

لكني وقد مارست أبا الطيب عمري وألفت فيه ، أجد فكرة العدم عنده سببا وباعثا ، فلو ان كافورا الاخشيدي أحسن اليه ، ولم يتنكر له حسدا وبغيا لما نفى الخلود عن الفراعين الذين يجثمون على مصر جثوم الاهرام وابي الهول الذي ما زال حتى اليوم أثر قنابل نابليون في وجهه وانفه وان وجهه السافر الذي بقي بعد نابليون من اعظم الخالدين ، يحمل ميسم عجز المدافع الفرنسية عن ازالة الاسد

الاديب

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ المنزل ٢٢٥١٣٩

Tel : Dir : 223819 Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

الانساني الذي يحرس صحراء مصر في وادي الملوك .

وقد كتب المؤلف مقدمة متتابعة في مختاراته للخالدين في لمحات مسببة .

وقد احب في آخر مقدمته ان يجبر خاطر النساء كما نقول في لهجتنا المعاصرة فذكر للقارئين والقارئات ان في كتابه سيرا لخالدات لا يبخسهن المؤلف المنصف حقهن بين الرجال فاذكرني بقولته هذه قولة للفرزدق ما أجدها في كتابه هذا وهي ان الفرزدق سئل يوما عن رأيه في الخنساء فقال :

ـ تلك امرأة فاقت الرجال .

ونحن نقول مثله في عصرنا :

ـ لقد كانت كاتبة العصر « مي » تفوق عباقرة الرجال (١) .

وما كنت موسيقيا ولا عازفا بالمعازف واللحون حتى أتكلم على باب الموسيقيين والملحنين في كتابه هذا ، وان اكن اطرب لسماعهم وآنس بأخبارهم ، وقد كان شوبرت وليست يشغلان بالي زمنا بسيرتيهما الغراميتين والفاجعتين ، واسجو طويلا الى السنفونيات التسع لبتهوفن ويعجبني توسكانيني وبخاصة « فردي » ملحن اوبيريت عائدة ، واجد « دفورجاك » الروماني البوهيمي قد خدم امته خدمة أصبو في امتي العربية الى مثلها ، فانه طاف آفاق بلاده يجمع التلاحين من الفلاحين والسوقة والمترفين ، ثم عاد في اواخر عمره يصفي هذه الالحان ويروقها بسكبها في غناء وطني خالد . ومن للامة العربية بأن يقوم موسيقار عظيم فيها بمثل ما قام به « دفورجاك » فان الحاننا العربية على ما فيها من تشتت لا تكاد تبين صورتنا الحقيقية خلال الزمان .

وكم للانصاف من أسباب مع قلمي ، فانني حين كنت اكتب عن الالحان ههنا ، كان يغني في المذياع المغني العراقي « ناظم الغزالي » المأسوف على غيابه ، فانني أجدني والها متطربا عند سماعه في مرنان صوته الحزين وغنائه الشجي المبين . على أن لي نظرية ورأيا في قراءات القرآن في العراق ، وفي الغناء العراقي بأنهما منحدران برنة محزونة وصوت باك من عهد مقتل الحسين . اذ كان التنواح عليه في هذه النغمات والقراءات الموروثة .

كما اجد « البزق » الذي خلد فقراته المغني اللبناني « محيي الدين بوعيون » ما يزال يطن خلال مسمعي فأجد فيه الروح اللبنانية العريقة .

وكان مصطفى هلال المطرب الشامي يجمع الاغاني العتيقة ليلبسها الثوب الجديد . وكان كل ذلك قليلا حين يضاف الى ما تصنع الامم من أجل لحونها وغنائها .

اما كلام المؤلف الباهر على الادباء ، فكان فيه تجوالي ومرحي ، وكنت أحسبني مثل جواد ابن الرومي الذي كان يقول « مرح الطرف في اللجام المحلى » . اذ وجدتني في بهرة حلقتي ونياط فكري وعزة خيالي ومثالي .

فرحت أعطي شكسبير الطوابع الابدية واهفو الى فولتير الساخر العميق ، فتطيف بخيالي مشاهد من روايته الشرقية « زاديك » ـ صديق ـ كما يسميها استاذنا الدكتور طه حسين حين قام بترجمتها ترجمة فاتنة قويمة ، فأذكر تلك المرأة الحسناء التي مر بها زاديك الوزير الشريد فوجدها في بعض البلاد جالسة على قبر طري الطين تجففه بمروحة بيدها ، معملة عجلى، فسألها : ماذا تصنعين؟ فأجابت:

ـ اجفف تراب القبر الذي فيه زوجي .

وفيم تفعلين ؟

ـ لقد اقسمت له اني لن امارس التزويج بعده حتى يجف تراب قبره وقد حضر لي خاطب ملحاح فهانذي اعاجل جفاف القبر ..

اما روسو المهيء لثورة فرانسة فان المؤلف عرضه في نطاق أديب وعالم نفسي ، ومشرع اجتماعي بأكثر مما يعرف سياسيا . والكسندر دوماس اختاره المؤلف الاستاذ شيخاني شيخا فرما وترك ابنه الشاب صاحب رواية « لادام اوكاميليا » وكان يشوقني ويشوق سائر القراء ان يروا بقلم الاستاذ سمير كلاما رائعا عن عاشق غادة الكاميليا . وقد مثلت سارة بيرنار رواية مصيرها فأبكت الجماهير .

اما مدام دوستال فقد كنت اجدها قد وزنها الادب الفرنسي بميزان صائب وكان معاصرها صاحب مذكرات ما وراء القبر شاطوبريان ، يعرف قيمة ذلك الادب النسائي الخالد .

ووقفت وقفة مديدة عند فيكتور هوغو حين مررت بباريس بالمدرسة التجهيزية « كوندورسيه » فقرأت على الجانب الايمن لوحا نحاسيا خالدا نقش فيه : « من هنا تخرج فيكتور هوغو » . وعلى الجانب الاخر لوح ثان منقوش فيه « ومن هنا تخرج باستور » فقلت متى نجد على ابواب تجاهيزنا الواحا منقوشا فيها ذكريات العباقرة الذين تخرجوا منها ؟

ومن غرائب ما يمكن ان يلقاه القارىء في هذا الكتاب العجاب ، أي كتاب « مع الخالدين » ان المؤلف حن ـ وله الشكران ـ على الادب العربي وعلى الشعر العربي بترجمة لبيت « هوغو » الذي أجاب به على رسالة نابليون اليه بالعفو عنه :

ابرىء يعفو عنه مجرم   كيف تسدي العفو كف المجرم

ويظهر اختلال الوزن في الشطر الاول والاعراب ولو قيل :

« أبرىء قد عفا عن مجرم » ، لاستقام الوزن والاعراب .

وكيف تم الامر في الكلام على طائفة الادباء ، فانها معين عند المؤلف لا ينضب وهو من سكب ادبه واحاطته وثقافته المتسعة .

ولست آخذا عليه انه اورد الخالدين شراذم في غير تعاقب أبجدي ، وبذلك نجا من الاستقصاء والاحصاء .

والخاطر العربي يلازم المؤلف فذكر شجرة الدر في الباب السياسي الذي ذكر فيه سميراميس وكلاهما من النساء اللواتي قمن بنوبة بالغة في الحكم والسياسة والحب ، وكانت خواتمهن فاجعة ومتشابهة ، لكنه لم يذكر احدا من العرب في باب الادباء ، وذكر طائفة جيدة من الفلاسفة العرب كالكندي والفارابي والبيروني والغزالي وابن رشد وابن باجة ، مع سقراط وأفلاطون وأرسطو وديكارت وديوي، ومع العلماء والفاتحين كان جوادا على العرب ايضا .

وفي الملحق الذي اضافه لكتابه ذكر طائفة مختلفة المشارب والهبات . ووقفت عند سيد المسرح الفرنسي الحديث ساشا غيتري الذي كان مثل موليير يؤلف الرواية ويخرجها ويمثلها ، ولست ناسيا روايته السينمائية «فلنصعد شارع الشانزليزيه» وكنت عام ١٩٦٠ وانا اجوس خلال هذا الشارع الاعظم بباريس اذكر ساشا غيتري واكبر نبوغه . اما « جورج دوهاميل » الذي ذكره المؤلف في هذا الملحق فيثير عندي ذكرى صديقي ناقد الادب المعاصر الاستاذ الكبير محمد مندور حين نهض بترجمة اجمل آثر لدوهاميل وهو كتابه « دفاع عن الادب » . ومن الصفات العلمية لهذا الكتاب النفيس « مع الخالدين » استناده الى المصادر الفرنسية والعربية مما يجعله ذا قيمة جامعية ومصدرا من المراجع الموثوق بها .

قلت لصديقي الكاتب الموهوب الاستاذ سمير شيخاني هات كتابك « مع الخالدين » قبل ان يلبس جلدته المزدانة ، فانه ليشوقني ان اكتب عنه وان ابعث الشوق اليه في قرائي وقارئاتي بمجلة « الاديب » التي اكتب فيها منذ صدورها لأزف كتابك ولا زفة « العوالم » في رواية « بمبا كشر » التي رأيتها أخيرا في مصر وأعجبت بها غاية الاعجاب .

دمشق   زكي المحاسني

(١) تدور الان مطابع دار المعارف بمصر لانجاز الكتاب الجديد للكاتبة العربية الكبيرة السيدة وداد سكاكيني وموضوعه عن « مي » رائدة العصر العشرين (الاديب) .

تــــــرام القاهــــرة

تأليف مهد سيد كيلاني ــ ١٤٤ صفحة ــ مطبعة المدني بالقاهرة

انه دين قديم في عنقي لهذا الباحث المثابر ان اعرض لأثر من آثاره ، وكتاب من كتبه ، فانه واحد من اولئك الابرار الذين يمضون يومهم بين اضابير دار الكتب بالقلعة باحثا ومنقبا عن تراث الدوريات العتيد ، وقد اصدر من قبل عددا من المؤلفات من ثمرة هذا البحث اهمها : الادب القبطي ، السلطان حسين كامل وعصره ، طه حسين الشاعر ، الازبكية . وله تحقيقات على المؤلفات القديمة واضافات عليها وخاصة كتاب الملل والنحل للشهرستاني . وما زال منذ اعوام يعمل في اعداد كتابه الضخم عن الادب والمجتمع في عصر الخديو عباس الثاني وهو عمل ضخم مجهد راجع من اجله صحف المؤيد والمقطم والاهرام يوما بيوم خلال فترة لا تقل عن عشرين عاما .

واليوم يقدم للقراء كتابا صغير الحجم ولكنه خطير المعنى ، اذ يتناول موضوعا غاية في الدقة ليرسم به صورة للمجتمع وهو تاريخ ترام القاهرة منذ ان بدأ سيره في ١٢ أغسطس ١٨٩٦ في القاهرة وما كان له من اثار . يقول : « فلما انشيء الترام حدثت ثورة هائلة في جميع نواحي الحياة القاهرية ، فطاب السهر واصبح في متناول الجماهير وبخاصة الشبان الذين كانوا يقضون الليل في الملاهي والمراقص ، وبدأت الروابط الاسرية في التفكك وضعفت رقابة الاباء على الابناء ، كما ساعد وجود الترام على اتساع حركة العمران » .

ويرى الاستاذ كيلاني ان الترام قد انشأ ادبا يمكن ان يطلق عليه « الادب الترامي » فكان له اثره في الحركة الثقافية والوطنية والفنية والرياضية والتجارية ، ولا شك ان هذا البحث هو قطاع من دراسة كيلاني الواسعة للعصر والمجتمع في هذه الفترة الدقيقة الشائقة التي لم يؤرخ لها بعد على وجه التفصيل والدقة . ومن هنا فاننا نجد كتاب « ترام القاهرة » من الكتب الطريفة الشائقة التي تعرض لصورة مجتمع القاهرة من خلال الترام ، متصلا بذلك ما هنالك من نكات وملح ترامية وادب شعبي وما يتصل بذلك من هجاء الترام ومدحه .

هذا هو الفن الذي اوشك ان يتخصص فيه الاستاذ كيلاني ويقدم فيه اثارا نافعة حقا ، وهو في ذلك يتابع قلة قليلة من كتابنا في العصر الماضي يمكن ان يكون ابرزهم توفيق حبيب « الصحفي العجوز » الذي ظل يكتب عامودا كاملا في جريدة الاهرام تحت عنوان « على الهامش » اكثر من عشر سنوات متوالية .

ولعل الاستاذ الكيلاني لن يكتفي بتاريخ الترام وادبه ، ولعله سوف يصدر كتبا متوالية عن قطاعات مختلفة من المجتمع ، كالندوات ، والاعياد ، والمسارح ، فيقدم بذلك خدمة لا حد لها للباحثين في شؤون المجتمع .

ولقد كان ميدان « صورة العصر وملامح المجتمع » من ادق الموضوعات التي لم يحفل بها كتاب الجيل الماضي في دراسات التاريخ والنقد والفنون الادبية المختلفة وقد لفت نظري الى هذا الموضوع الاستاذ يحيى حقي فأتاح لي بذلك ان اقدم كتابي « الشرق في فجر اليقظة » متضمنا اكثر من ٢١ صورة للمجتمع من مختلف قطاعاته « المحامين ، الاطباء ، الصحافة ، الفن ، الاعياد ، الموالد ، حلقات التصوف ، المقاهي ، الاندية ، الخ .. » ثم كان ان اصدرت كتاب « تطور الصحافة العربية في مصر » وجعلته « محاولة لرسم صورة للعصر وملامح المجتمع » .

غير اني لا ابالغ اذا قلت ان الاستاذ كيلاني يفوقني في هذا المجال لصموده واصراره ومتابعته الدقيقة لهذه المرحلة على نحو جدير بالتقدير والتنويه واني في شوق ولهفة لكتابه الضخم الذي اوشك الانتهاء منه عن « عصر عباس حلمي الثاني » حيث يجلي هذه المرحلة الطويلة الدقيقة في مجال المجتمع والثقافة والحضارة .

القاهرة — **انور الجندي**

•

علم النفس في الحياة اليومية

تأليف الدكتور معمر خالد الشابندر ــ ؟ صفحة ــ مطبعة ؟

هذا كتاب حري ان يلم به كل ذي نفس يعنيه ان يعرف من أمرها ما ينبغي ان يعرف ، ويزيد الكتاب أهمية انه من المصادر العربية المعدودة ــ بل النادرة ــ في مثل هذه البحوث وذلك ان علم النفس بما يحمل من المعاني وما يفرض اليه من قضايا النفس واحوالها المتقلبة يعد علما بكرا اشتغل فيه علماء الغرب مستقصين ومتتبعين فاكتمل على ايديهم او كاد يكتمل ..

ومن هذه الناحية فان أمهات مصادره لم تبرح أجنبية الالفاظ والتعابير والمصطلحات وعلى رغم ما الف وترجم من هذه المباحث فما برحت مسائل من علم النفس غامضة معقدة في البيئات العربية فهي تفتقد المصادر المكتوبة لتكتمل بها أهبة المعنيين بالدراسات النفسية في ارجاء وطننا .. وقد يكون من بعض ذلك مسألة علم النفس في العلاجات الطبية ازاء مجموعة غير قليلة من الامراض التي يظن انها جسدية بحتة وما هي كذلك ، او يظن انها امراض منتحلة موهومة وما هي بذلك ..

كان من ضمن تلك الامراض ما يسمى بالامراض العصابية وهي فريق من الامراض التي لم تبحث في العربية على الوجه الذي يكشف به عن خصائصها واعراضها فوق ان ما يرجع اليه من مصادر هذا البحث في اللغات الاخرى نزر يسير ثم انه كذلك مضطرب التناول في المعروف من مطبوعات هذه المصادر ..

هذا الموضوع هو اصل الكتاب الذي ألفه الدكتور معمر خالد الشابندر الطبيب الاديب والباحث النفساني الذي عرف في الاوساط البغدادية بغزارة الانتاج والداب الحريص على البحث والاستقصاء في كثير وكثير من مجالات المعرفة ..

ومن أجل أن نعرف شيئا عن المؤلف ينبغي ان نشير الى شيء آخر من مصادر معرفته فلقد استفاد حصيلته الضخمة في الدراسات النفسية من خلال الفرص التي قضاها مديرا لمستشفى الامراض العقلية والعصبية في بغداد ، وطبيبا معالجا في غير مستشفى واحد هناك .. وكذلك من خلال وجوده عضوا في هيئة محكمة الاحداث العراقية ، يضاف الى ذلك احتكاكه بكثير من مجالات الثقافة الحديثة .. وما عرفنا في بلدنا ــ بغداد ــ من ضاهاه او حاكاه على كثرة اهل الفضل في الناس ..

وقد تحدث الدكتور المؤلف من البدء عما بذ من جهد في سبيل تأليف كتابه فقال « فلقد طالما فكرت في ان انهض بهذا العبء الذي لم أجده مبحوثا بالعربية بالشكل الذي يستحقه » .

ثم يقول « الله ارجو ان أكون قد وفقت ولو بقدر محدود في تأنيس المعرفة في مجال هذا البحث وفي تقريب هذا الموضوع الشائك الى الاذهان وفي تزويد القارئ المتتبع بمفاتيح تذلل له بعض الابواب المغلقة التي جعلت هذا العلم مجالا لذوي الاختصاص وحدهم في ابراجهم العاجية البعيدة ــ شيئا ما ــ عن واقع الحياة العملية » ..

قرات كتاب الدكتور الشابندر ــ وانا في مقر عملي في بكين

عاصمة الصين الشعبية ـ فكان على رغم تزاحم المصطلحات العلمية في أرجائه ممتعا طريفا .. والعجيب في المسألة ان الكتاب استطاع ان يصحح في ذهني حكاية العلاج النفسي والعيادات النفسية التي عرفت في العهد الاخير ، فاني كنت أجد ذلك مما لا طائل فيه ولا حقيقة له ..

فلقد أورد الدكتور في تضاعيف كتابه نماذج لبعض الاخطاء التي وقع فيها اطباء الاجساد عند تشخيصهم امراضا كانت ذات طبيعة نفسية غربت عن بالهم ، بل لعلهم تجاهلوها استهانة بها ..

وشاء المؤلف ان يكون على الحياد والنصفة في دراساته فأورد كذلك نموذجين لخطأ طبيب نفسي عند تشخيصه بعض الامراض ذات الطبيعة الجسدية جاهلا انها ليست من بعض شأنه ..

وأشار الى أثر الامراض الجسدية في النفس وأثر الامراض النفسية في الجسد فقال ـ ص ٢٥ ـ « ولقد ثبت اليوم بالبرهان والتجربة ان بعض الامراض الجسدية العضوية تنبعث من عوامل نفسية صرفة » .. وفي اكثر من مكان واحد من الكتاب عدد المؤلف التغيرات الجسدية التي تحصل في حالات الانفعالات والتصرفات الشخصية الاخرى من نحو الغضب والحزن والخوف .. ونوه بما ينشأ من تعقد الحالة الصحية وتأزمها لدى المرضى الذين لا يلاحظ الاطباء ظروفهم النفسية للتأكد من طبيعة ما يشكونه من الامراض والتثبت من تشخيص عضويتها او نفسانيتها .. ويؤكد الدكتور ان حكاية التطبيب النفسي لم تكن وليدة الازمان المتاخرة بل ان ذلك كان مما اهتدى اليه البشر القديم منذ دهور بعيدة ..

فرأينا المؤلف يقتبس من مصادر طبية عربية ألفت في عهود الحضارة الاسلامية المشرقة شواهد تومىء الى علاقة النفس بالجسد في امر الامراض والاسقام ، كالذي فعله في الاقتباس من « كامل الصناعة الطبية » لابن العباس المجوسي المتوفي سنة ٣٨٤ هـ .. مما يستدل به على ان العرب نظروا في هذا الموضوع واتجهوا الى دراسته والتنويه به ..

وفرق المؤلف بين الامراض العصبية والامراض العقلية فذكر ـ ص ١٣ ـ قوله « والناس بمختلف مستوياتهم الثقافية ـ الا بعض المتخصصين منهم ـ يعتقدون بان الامراض العصبية والامراض العقلية شيء واحد » ..

والفيت المؤلف كبير الحرص على ان ينال الطب النفسي عناية تامة فيكون حيث كان الطب الجسدي .. فهو يقول ـ ص ٣٢ ـ «وحبذا لو ان التدريس في الطب عندنا يتجه هذا الاتجاه السليم ويهتم بالنواحي النفسية بقدر ما يستحقه » ، وكذلك اقترح ان يكون هناك مجلس اعلى للتخطيط النفسي في البلاد .. ونراه يقول ـ ص ١٤٥ ـ « ومن الضروري ان يبدأ العمل على الصعيد الرسمي الذي هو اقدر على المبادرة من غيره في تحقيق فكرة العيادات النفسية للاطفال والاحداث والمراهقين الشباب » ..

وأفاض الدكتور الكلام على اهمية علم النفس فكان ذلك ـ على ما أظن ـ مما استطاع الدكتور ان يتوصل به الى اقناع غير واحد ممن لم يألفوا مثل هذه المسائل بعد ولم يستمرئوها ..

وعمد الدكتور الى علم النفس فجعله ذا شأن في التوجيه الموسيقي والتمثيل والشعر ، وكانت هذه قبل اليوم معدودة من جماعة علم المنطق ..

والمؤلف كثير التواضع ودماثة الخلق ، ورأيت آثار ذلك في تضاعيف كتابه غير مرة ففي ـ ص ٣٤ ـ يقول « والانفعال عند علماء النفس من السلوك .. وهو عندي ـ على كوني من المتعلمين ـ مادة السلوك ومؤلف ظواهره » .. وفي ـ ص ١٧ ـ قال « ولعل شفيعي في العجز والتقصير عند القارىء المنصف الذي يعرف مشقة البحث انني الى الخير العام قصدت وانني اقدم اليه في هذا البحث خلاصة

أسلوب عملي لموضوع مغرق في النظريات » ..

وتجلى حسن أدب المؤلف وفرط وفائه لاستاذه في الطب «الدكتور هاشم الوتري » الى حد أنه وصفه عند الاشارة الى اسمه بالشيخ الرئيس تشبيها له بالشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا ..

والحس الديني لدى المؤلف يشع على سطور الكتاب بلمعان باهر في بعض الاحيان من نحو قوله ـ ص ٣١ ـ « ومنها ما يحصل في النظام الكهربائي الدماغي الذي هو من اعاجيب ارادة الله في خلق هذا الانسان » ..

ولم يخل الكتاب من اشارات الى بعض نظم التربية الاجتماعية القلقة لدى الناس بل قد يكون ذلك شيئا متلبسا بمختلف موضوعات علم النفس في الحياة اليومية ..

فان الدكتور يقول ـ ص ١١٢ ـ « ان شعور الطفل بنقص المحبة من ابويه او ممن يقوم مقام احدهما او كليهما وبأنه غير مرغوب فيه قد لا يؤدي الى قلق مرضي فحسب وانما الى تعويض او انتقام ايضا مما هو طريق الجنوح .. كما ان الافراط في المحبة قد يؤدي الى عدم نمو الشخصية والى بقائها معتمدة على الغير مما هو طريق العصاب والمراهقة المختلة غير المتوازنة » ..

ومن الفصول القيمة في الكتاب ما عدده المؤلف من اسباب الامراض العقلية واعراضها وما قدمه لقرائه من نصائح وتوصيات قيمة في معالجة هذه الامراض ، وختم هذا الفصل بمقترح قيم يتعلق بانشاء جمعيات وهيئات من اختصاصها حماية الصحة العقلية ..

ثم ألحق المؤلف بكتابه لحقا مفصلا للمصطلحات والتعابير المتعلقة بعلم النفس .

ان كتاب الشابندر في علم النفس لعب نفس الدور الذي لعبه كتاب الاغاني لابي الفرج بما نقله الى اوساط الناس من ذخائر الادبوالتاريخ، وهكذا صنع الدكتورالشابندر فأتاح بذلك للقارىءالعادي ان يفقه نفسه في امر النفس وعلمها ، ويعرف من شأن هذه القضايا ما ينتفع به بعض الانتفاع ، ويرد من فصوله في هذا الشأن ما يرد ..

وفي تضاعيف الكتاب أثبت المؤلف حقائق علمية حكيمة متناثرة هنا وهناك من مثل قوله ـ ص ٥٦ ـ « وليس في الناس من هو سوي كامل مطلق السوية والا خرج من نطاق الانسان » .. ومثل قوله ـ ص ٦١ ـ « والذي يعتقد بان الجدل يؤدي الى نتيجة منطقية دائما مخطىء بلا شك ، لان الالتزام بالتفكير المنطقي الموضوعي المجرد نادر حتى بين العلماء .

ان الكتاب حسن العرض والتعليل وربما كانت بعض فصوله اكثر توفيقا من غيرها في هذه الناحية .. والمؤلف قوى الحجة وذو نظرات انتقادية نافذة ففي كلامه على « الهستيريا » نجده يقول «لعلي لم أجد لفظة أسيء الى مدلولها وحملت ما ليس منها وقرنت بسوء الاخذ والتناول واستخدمت في غير مجالها كهذه اللفظة التي تدل على معنى محدود وتشير الى حالة مرضية معينة ذات اوصاف خاصة وسمات مميزة وعلامات دالة .. ولكنها اتخذت في أذهان معظم الناس خواصهم وعوامهم صورة مهزوزة ومشوشة وظالمة في اكثر الاحيان ، بل لقد صارت في عدد من المجتمعات من كلمات الزراية والسب والتحقير ومن أوصاف الغش والكذب والتدليس .. »

وفي الكلام على العوامل المسببة للامراض العقلية نرى المؤلف يقول « ان البطالة عامل مهم في هذا الباب لا من الناحية الاقتصادية وحدها وانما من ناحية التطمين لدوافع الحركة والانجاز عند الفرد وان الصد والملل الناجمين عن البطالة لا بد ان يؤديا الى اضطراب نفسي .. ان العمل الملائم يؤدي الى اثبات الذات وتطمينها وبعكسه يفقد المرء ثقته بنفسه وينساق الى طريق الاضطراب النفسي » ..

واخيرا فاني ارجو للكتاب ان يلعب دوره في الثقافة النفسية وان تؤتي جهود الاستاذ الدكتور المؤلف اكلها كل حين .. وعساني قد وفقت للتنويه به وبكتابه على وجه حسن وطريقة مرضية ..

بكين

جلال الحنفي

ظهر حديثا

- العهد المخضرم في سوريا ولبنان ١٩١٨ / ١٩٢٢ ـ تأليف محمد جميل بيهم ـ ٢٢٤ صفحة ـ منشورات دار الطليعة للطباعة والنشر ببيروت ـ مطابع دار غندور ببيروت .
- خبأنا الصواريخ في الهياكل ـ مجموعة شعرية ـ المرحلة الثانية ـ ثريا ملحس ـ رسم الغلاف المهندس نائل ملحس ـ ٥٤٨ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة الغريب ببيروت .
- هذا جنى زرعك يا سامي ـ مجموعة شعرية ـ هلال ناجي ـ ٢٤ صفحة ـ دار الارشاد للطباعة والنشر ببيروت .
- التوت المر ـ رواية ـ تأليف محمد العروسي المطوي ـ الرسوم بريشة محمود التونسي ـ ٢١٦ صفحة ـ فازت هذه القصة بجائزة بلدية العاصمة عام ١٩٦٣ ـ منشورات الدار التونسية للنشر بتونس ـ طبع الشركة التونسية لفنون الرسم بتونس .
- المرأة العربية والروح النضالية ـ تأليف ثريا ملحس ـ ٣٢ صفحة ـ مطبعة دار الكتب ببيروت .
- بيت الذكريات ـ رواية ـ تأليف حازم مراد ـ الرسوم بريشة مقبل رزق الله ـ ١٧٢ صفحة ـ مطابع دار البصري ببغداد .
- نظريات الاجور في الفكر الاقتصادي ـ تأليف الدكتور محمود محمد الحبيب مساعد رئيس جامعة البصرة في العلاقات الثقافية ومدرس العلوم الاقتصادية ـ ٥٢ صفحة ـ منشورات المؤسسة الثقافية العمالية في العراق ـ مطبعة الحرية ببغداد .
- تطور حقوق الانسان ـ دراسة اعدت لمناسبة المؤتمر الدولي لحقوق الانسان ـ تأليف روكس بن زائد العزيزي ـ تقديم نزار الزين صاحب مجلة العرفان بصيدا ـ ٥٤ صفحة ـ ملحق مجلة العرفان ـ مطابع الوفاء ببيروت .
- العصا في حياتنا وتراثنا ـ تأليف المحامي عبد القادر عياش عضو لجنة الفنون الشعبية في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم بسورية ـ ٩٦ صفحة ـ حجم كبير ـ الكتاب ١٩ في سلسلة تحقيقات فولكلورية من وادي الفرات ـ مطابع الف باء والاديب بدمشق .
- الطواحين الثلاث وقصص واقعية اخرى ـ تأليف فتوح هب الريح ـ ١٢٨ صفحة ـ منشورات دار الرائد بحلب ـ مطبعة كنيدر بحلب .
- توازن القوى بين العرب واسرائيل ـ دراسة تحليلية استراتيجية لعدوان حزيران ١٩٦٧ ـ تأليف امين النفوري ـ ٢٧٦ صفحة ـ حجم كبير ـ دار الاعتدال للطباعة والنشر بدمشق .
- نهر الشعاع ـ مجموعة شعرية ـ احمد علي حسن ـ ١٦٠ صفحة ـ منشورات دار الثقافة في دمشق ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .
- النار في حياتنا وتراثنا ـ تأليف المحامي عبد القادر عياش عضو لجنة الفنون الشعبية في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم بسورية ـ ٩٦ صفحة ـ حجم كبير ـ الكتاب ٢٢ في سلسلة تحقيقات فولكلورية من وادي الفرات ـ صدر في دير الزور بسورية (لم يذكر اسم المطبعة) .